



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عباس لغرور - خنشلة-



كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

التخصص: الأدب القديم

استراتيجية الحجاج

في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه

مذكرة مقدمة لقسم اللغة والأدب العربي لاستكمال مقاييس شهادة الماستر

إشراف الدكتور:

- رشيد بلعيفة

إعداد الطالبة:

- زبيدة لعور

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
رابح بوشعشوعة	أستاذ مساعد -أ-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	رئيسا
رشيد بلعيفة	أستاذ محاضر -أ-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	مشرفا
سليمان عواطف	أستاذ محاضر -ب-	جامعة عباس لغرور -خنشلة-	مناقشا

السنة الجامعية: 2017*2018 م

شكر و عرفان

الحمد لله وحده والشكر كله لله خالق السموات والأرض
عالم الغيب والشهادة، بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق رسولاً
للعالمين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده
ورسوله.

لا يشكر الله من لا يشكر الناس، لذا نتقدم بعظيم الاحترام وفائق
الشكر للأستاذ الدكتور المشرف على هذه الدراسة
"بلعيفة رشيد"

الذي ساعدني وساعد كل من لجأ إليه، فكان قبلة الطلبة
يأتونه من كل فج عميق، فجزاه الله عنا خير، ونفع بأعماله والديه
كما ربياه صغيراً.

كما لا يفوتنا تقديم الشكر للأستاذين الذين تقدموا بمناقشة
الدراسة الأستاذ: بوشعشوعة راجح والأستاذة: سليمان عواطف
لما تكبداه من عناء قراءة المذكرة لأجل توجيه بعض مساراتها.
والشكر موصول لكل من ساعدني في عامي هذا

وفي الأعوام التي سبقتة بدأ بالوالدين الكريمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ

فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا

لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ"

مقدمة

يُعدّ الحجاج "Argumentation" مبحثاً مهماً من مباحث الدرس اللساني التداولي، ونظرية من النظريات المهمة فيه إلى جانب نظرية أفعال الكلام "Acte de parole"، كما تهدف هذه النظرية إلى دراسة الخطاب دراسة حجاجية والكشف عن أساليب الإقناع التي يحتويها، لأن الحجاج سمة أي خطاب مهما كان نوعه ومهما اختلفت طوابعه لا بد أن يتوفر على وسائل حجاجية ليحقق التأثير، فالخطاب وسيلة المتكلم ليجعل المخاطب يتقبل آراءه، ومن هنا جاء الحجاج بمفهوم إقامة الحجة.

ولما كان الحجاج مجاله الخطابة، أو هو أقرب إلى فن الخطابة، اخترنا أن تكون الخطابة الإسلامية وتحديدًا خطابة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فضاءً تطبيقياً لنظرية الحجاج، ومنه جاءت دراستنا موسومة بـ"إستراتيجية الحجاج في خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه".

وارتباطنا بهذا الموضوع كان مدفوعاً بأسباب ذاتية وأخرى موضوعية، أما الأسباب الذاتية فهي: الميل إلى النصوص النثرية العربية القديمة، خاصة فن الخطابة في عصر الخلافة الراشدية، ففي هذا العصر (العصر الإسلامي) كُتِبَ لها الازدهار والتفوق عن بقية الفنون الأدبية، والرغبة أيضاً في تقديم قراءة جديدة لنص ينتمي إلى العصور العربية القديمة من خلال اتخاذ طريقة جديدة في التعامل مع النصوص الأدبية، فكانت نظرية الحجاج هي الطريقة الجديدة وخطابة أبو بكر الصديق "رضي الله عنه" هي النص الذي عدنا إليه.

أما الأسباب الموضوعية فتتمثل في الكشف عن الطرق التي اعتمدها الصديق "رضي الله عنه" من أجل إقناع متلقيه، أي البحث في الوسائل الحجاجية الإقناعية التي يحتويها الخطاب الإسلامي خاصة أن الخطابة في ذلك العصر جاءت كرد فعل للأوضاع السياسية والاجتماعية آنذاك فتضاربت الأفكار واختلفت الأهواء بعد مجيء الدين الإسلامي فكانت غايتنا أن نكشف عن وسائل الإقناع التي اعتمدها الصديق رضي

الله عنه في خطبه من أجل إقناع هذه الفئات المختلفة وجمعهم على كلمة واحدة خاصة بعد وفاة الرسول صل الله عليه وسلم.

ومن هنا تبرز عدة تساؤلات تمثل في جوهرها إشكالية الموضوع أهمها:

➤ ما هي أهم الوسائل الحجاجية التي اعتمدها الصديق رضي الله عنه في إقامة حججه؟

➤ فيما تكمن أهم الاستراتيجيات الحجاجية التي تحتويها الخطبة الإسلامية خطب الصديق رضي الله عنه؟

➤ ما وظيفة الوسائل البلاغية في النص الحجاجي وهل عملت على تقوية الحجج في خطب الصديق رضي الله عنه؟

➤ هل استطاع الصديق رضي الله عنه إقناع المتلقي بآرائه؟ وكيف جاءت الحجج التي اعتمدها؟

واعتمد البحث على المنهج التداولي في تحليل الخطاب السردي، ممثلاً في استقصاء آلية الحجاج باعتبارها من أهم الإجراءات التحليلية داخل هذا المنهج، إضافة إلى تتبعنا المحطات التاريخية في تدرج الحجاج عبر حقبة زمنية قديمة.

هذا وقد ساعدتنا في دراستنا مجموعة من المصادر والمراجع أهمها: **جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة (العصر الجاهلي-عصر صدر الإسلام) لأحمد زكي صفوت** باعتبارها المدونة المدروسة-المدونة الأم-، إضافة إلى مصادر ومراجع ساعدتنا في التنظير أهمها: **أبو بكر العزاوي: "اللغة و الحجاج"، علي الشبعان: "الحجاج بين المنوال والمثال"، محمد العمري: "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"، فيليب بروتون: "الحجاج في التواصل"** وكذلك مجلة عالم المعرفة التي احتوت على بحوث علمية دقيقة خاصة بالحجاج.

كما اقتضت الدراسة تقسيمها إلى مدخل وفصلين أحدهما نظري والآخر تطبيقي ومذيلة بخاتمة ومقدمة بمقدمة:

مدخل بعنوان: الدراسات اللسانية والتداولية، جاء فيه: مفهوم التداولية لغة واصطلاحاً وخلفياتها الفلسفية والمعرفية وأهم النظريات والمصطلحات التي جاءت، بها ثم الدراسات العربية وعلاقتها بالتداولية.

الفصل الأول بعنوان: استراتيجيات الحجاج وتقنياته جاء فيه: مفهوم الإستراتيجية، مفهوم الحجاج في الجذور العربية وفي الجذور الغربية، الحجاج والجدل في الثقافة العربية، الحجاج كنظرية البلاغة الجديدة. روادها وأهم أسسها.

الفصل الثاني بعنوان: استراتيجيات الحجاج في خطب الصديق رضي الله عنه: وقد حاولنا في هذا الفصل الكشف عن الآليات الحجاجية في خطب الصديق رضي الله عنه والتي اعتمدها من أجل الإقناع.

أما الصعوبات التي واجهتنا والتي حالت بيننا وبين إتمام البحث هي: موسوعية نظرية الحجاج والتقائهما مع كثير من علوم اللغة، فكان من الصعوبة الإحاطة بجميع جوانب النظرية، ولكن بفضل الله هانت المصاعب وسهلت الدروب فاستطعنا إخراج عملاً لا نحسب أنه كَمُل واستوفى ولكن حَسُبْنَا أن يكون هذا العمل قد ساهم في تقديم قراءة جديدة لنص نثري عربي قديم، آملين إلى فتح آفاق جديدة على البحوث الحجاجية مستقبلاً.

ولا يفوتنا في الأخير أن نذكر فضل جامعة عباس لغرور علينا لننتقدم بشكر أساتذتها في كلية الآداب واللغات، كما لا يفوتنا أن نتقدم بخالص الشكر وكل معاني الاحترام إلى الأستاذ المشرف على هذه الدراسة الدكتور "بلعيفة رشيد" والذي سخر لنا مكتبته الورقية إضافة إلى تتبعه لخطوات البحث مذ أن كان عنوان على ورقة، فجزاه الله عنا كل خير وجعله من أصحاب اليمين وفي مقام الشهداء والصديقين.

مخل

توطئة:

تنوعت الدراسات اللغوية واختلفت باختلاف تياراتها، وذلك بظهور عدة نظريات لغوية أدت إلى بروز هذه التيارات، من بينها التيار التداولي الذي فرض هيمنته، وشاع في جملة الدراسات اللغوية الحديثة سواء على مستوى التنظير والممارسة.

1. مفهوم التداولية:

1.1. لغة:

تداولية مصدر من الفعل تداول -يتداول- دولّ، جاء في لسان العرب: «الدولة اسم الشيء الذي يتداول والدولة: الفعل والانتقال من حال إلى حال... وفي الحديث الدعاء حدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى عليه وسلم، لم يتداوله بينك وبين الرجال: أي لم يتناقله الرجال وترويه واحداً عن واحد... وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة»¹، فالتداولية الانتقال والتغير من حالة إلى حالة وهي عكس الثبات.

2.1. اصطلاحاً:

جاءت التداولية -la pragmatique- من أجل الدراسات اللغوية، فقد ولدت من رحم اللسانيات وإلى اللسانيات تنتمي، وتعرف أنها «علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال»²، فهي علم لغوي يدرس النشاط اللغوي مثلها مثل

¹ ابن منظور، جمال الدين الأنصاري، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير و آخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج 16، باب الدال، مادة دول، ص 1456.

² مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 16.

اللسانيات، لكن الأولى تهتم بالجانب الاستعمالي وبالتالي هي «تخصص يندرج ضمن اللسانيات»¹، وأبسط تعريف لها:

«علم الاستعمال اللغوي»²، أي أنها تدرس اللغة أثناء الاستعمال وتهتم بالجانب التواصل والتواصل الاجتماعي فهي: «دراسة للغة بوصفها ظاهرة خطابية تواصلية واجتماعية في نفس الوقت»³، وتبتعد بذلك عن الاستعمال المعجمي والقاموسي المعروف، أي تتجاوز الاستخدامات المعجمية إلى الاستخدامات الواقعية المرتبطة بالسياقات اللغوية، لذا تعرف أيضا أنها: «دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية بعيداً عن حدودها المعجمية كما نجدها في القواميس والمعاجم»⁴، وبالتالي تجاوزت دراسة اللغة كبنية مغلقة على ذاتها، بل تدرسها في وجود السياقات الخارجية المحيطة بها.

وقد تُرجمَ مصطلح **pragmatics** (في الانجليزية) و **pragmatique** (في الفرنسية) إلى عدة مصطلحات، لذلك نجد ترجمات معربة مختلفة منها: البراجماتية اللسانية (**linguistique pragmatique**)، أو التداولية اللسانية، التداوليات، علم اللغة التداولي، علم المقاصد، علم التخاطب، التخاطبية، السياقية، المقامية، المقاماتية، الوظائفية، علم الذرائع، الذرعية، الذرائعية، الذريعات، علم اللغة الذرعي، علم اللغة الذرائعي، الفائدية، الفوائدية، النفعية، الانتفاعية، العملية، الملفوظية، البراجماتية، البراجماتيك، براغماتيقا، البراغماتزم، وأشهر الترجمات وأكثرها استعمالاً مصطلح التداولية، ويفضل بعض النقاد وعلى رأسهم محمود عكاشة مصطلح التداولية اللسانية ليفرق بينها وبين المذهب البراجماتي الفلسفي، ويعرفها بقوله «منهج غربي حديث في

¹ فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، تر : صابر الحباشة ، دار الحوار للنشر ، اللاذقية ، سورية ، ط 1، 2007 ، ص، 19.

² المرجع نفسه، ص، 17.

³ فيليب بلانشيه ، التداولية من أوستين إلى غوفمان ، ص، 19.

⁴ بهاء الدين محمود مزيد، تبسيط التداولية من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي ، دار شمس للنشر و التوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط1، 2010، ص، 18.

البحث اللغوي»¹، فهو يرى أنها منهج نشأ وتطور في الساحة الغربية، كما أنه منهج يعنى باللغة.

كما أنّ التداولية كعلم يهتم بالجانب الاستعمال اللغوي وكمصطلح **pragmatique** «أشار إليه الألسني السويسري شال بالي في كتابه اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية»²، لذا فالتداولية كمنهج يعنى باللغة بشرت به اللسانيات العامة.

وانطلاقاً من تعريف التداولية نستطيع التمييز بينها وبين اللسانيات وعلم النحو، باعتبار أن العلوم الثلاثة تختص بدراسة اللغة، لكن لكل علم جانب يختص به، المشترك الوحيد دراسة اللغة.

2. بين التداولية واللسانيات وعلم النحو:

تدرس التداولية علاقة اللغة بمستخدمها، أي تدرس النشاط اللغوي وعلاقته بالسياقات الخارجية، علاقة الكلام بالمتكلم، وبذلك يتسع مجال دراستها ليشمل جميع أنواع الاستعمالات اللغوية، و«أحوال المتكلمين وأغراضهم وأحوال المخاطبين ورغباتهم»³، لذا تعتمد على علم النفس المعرفي لتربط بين اللغة وإدراك المتكلم لما يتلفظ به من كلام أثناء الاستعمال، بينما اللسانيات تدرس علاقة اللغة بدلالاتها، فتدرس اللغة في مستواها الصوتي والصرفي والتركيبى والدلالي، وبالتالي الدراسة اللسانية دراسة مغلقة، تؤمن باللغة كبنية مجردة، تدرسها في ذاتها ومن أجل ذاتها، بعيداً عن السياقات الخارجية وظروف الخطاب، ويدرس علم النحو علاقة الكلمات ببعضها.

¹ محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنساء و المبادئ"، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2013، ص3.

² جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، ط1، 1998، ص7.

³ مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص، 24.

نستشف من هذه الفروقات أن التداولية علم لغوي -علم يعنى باللغة - كبقية العلوم اللغوية، جاء ليسلط الضوء على جانب كان مغفلا في الدراسات اللغوية، وهو علاقة الكلام بالمتكلم وظروف الاستعمال اللغوي، فلا تدرس اللغة كبنية مغلقة على ذاتها، بل تدرس اللغة في اجتماع العناصر التواصلية الستة كما وضعها رومان ياكبسون، فهي تدرس ملفوظ محدد من متكلم محدد موجه إلى مخاطب محدد في ظروف سياقية محددة "الكلام بمقتضى الحال".

كما ارتكزت التداولية في بدء ظهورها على جملة من الفلسفات والمعارف والعلوم، فهي لم تأت من فراغ بل كانت لها أرضية خصبة ساعدت على نموها وتطورها.

3. الخلفية الفلسفية والمعرفية للتداولية:

انبثقت التداولية من عدة حقول فلسفية ومعرفية، فكل نظرية من نظريتها، وكل مبدأ من مبادئها له مرجعية أو فلسفية ما، فنظرية أفعال الكلام مثلاً كانت نتاج تفكير فلسفي، وكذا نظرية المحادثة ماهي إلا أحد أسس علم النفس المعرفي، ويمكن حصر خلفيات التداولية في:

1.3. الفلسفة التحليلية:

نشير إلى هذه الفلسفة كوسيلة لبيان منبع نظرية أفعال الكلام، ولا نبتغي أن نجعلها غاية في حد ذاتها.

نشأت هذه الفلسفة في القرن العشرين على يد الفيلسوف الألماني (غوتلوب فريجه Goutlob frege)، وأهم ما جاء به تمييزه بين اسم العلم واسم المحمول، فالأول يشير إلى فرد معين بينما الثاني «يقوم بوظيفة التصور، أي بإسناد مجموعة من الخصائص

الوصفية إلى اسم العلم»¹ وهو ما يقابل مصطلحي الدال والمدلول عند (فرديناند دو سوسور)، ومن بعده يأتي (لودفيج فيتغنشتاين ludvij wittjenstin) ليكمل ما أتى به الأول، من خلال فلسفته سماها "فلسفة اللغة العادية"، وتقوم هذه الفلسفة على التمييز بين «طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في كلام الرجل»²، أي يميز بين اللغة ودلالاتها في القواميس والمعاجم، ودلالات اللغة أثناء الاستعمال.

ومجمل القول أن الفلسفة التحليلية اتخذت من اللغة أداة ضرورية لفهم العالم، لذلك أولت اهتمامًا كبيرًا بها، وظهر ثلة من الفلاسفة نهجو منهجها وتبنوا آراءها من ذاك نجد (هوسرل Husserl، كارناب car nap، أوستين Austi، سيرل Searle)، ومن هؤلاء تبلور التيار التداولي في الدراسات اللغوية، إذ انطلقوا من مبدأ ثابت لديهم مفاده «فهم الإنسان لذاته ولعالمه يركز في المقام الأول على اللغة»³، أي الانتقال من دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها إلى دراسة اللغة من أجل فهم الإنسان وعالمه، ومن فلسفة اللغة العادية (لفيتغنشتاين) وإتباعه انبثقت نظرية أفعال الكلام التي نظّر لها كل من (أوستين وسيرل).

2.3. علم النفس المعرفي:

استفادت التداولية من بعض أسس علم النفس المعرفي في صياغة نظرياتها، تحديدًا "نظرية الملاءمة"، حيث يفسر أصحاب التداولية بعض الاستخدامات اللغوية بإرجاعها إلى المتكلم الذي يرى فيها أكثر إثارة وملاءمة للمخاطب -علاقة المتكلم بالكلام-.

¹ المرجع السابق، ص 19.

² منطقي نمساوي، تحصل على الجنسية البريطانية (1891/1951)، أستاذ الفلسفة في جامعة كمبريدج، بحث في أسس الرياضيات، اتجه إلى دراسة اللغات الطبيعية، وضع نظرية "لعبة اللغة jeu de langage" ينظر : مسعود صحراوي، التداولية اليوم.

³ المرجع نفسه، ص 20.

وانطلاقاً من هذه الفلسفات وهذه الخلفيات المعرفية سعى أصحاب التداولية إلى إيجاد مجموعة من الإجراءات لدراسة الاستعمال اللغوي، فجاءوا بمجموعة من المبادئ والنظريات لتحقيق أهدافها، فنظرت لمجموعة من المصطلحات.

4. أهم مفاهيم ونظريات التداولية:

سعى أصحاب المنهج التداولي (جون أوستين-جون سورل- ارفنغ غوفمان-جون غمبرز)، إلى وضع مصطلحات ونظريات خاصة بدراساتهم "دراسة الاستعمال اللغوي"، ومن أهم ما جاءوا به:

1.4. نظرية أفعال الكلام (acte de lanqage): وهي من أهم نظريات التداولية، فمصطلح أفعال الكلام من وضع جون أوستين (johin Austin) ، يقول، «إنَّ قول شيء ما يعني فعل شيء ما»¹، ومن الفعل القول يميز أوستين بين ثلاث عناصر، وهي مكونات العمل القولي:

-فعل القول أو الفعل اللغوي **act le cutoire**: ويقصد به سلسلة الأصوات التي يتلفظ بها، فهو «إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة»²، فالفعل عنده يشمل على أفعال لغوية فرعية، وهي المستويات اللسانية (صوتي، صرفي، تركيب، دلالي)، ويطلق عليها أوستين أفعالاً: فعل صوتي، فعل تركيب، فعل دلالي.

-العمل المتضمن في القول **act illocutoire**: ويقصد به العمل المتحقق عند قولنا شيء ما، ويرتبط بالمتكلم وما يريد من خلال عمله القولي: إثبات، نفي، وعيد،

¹ منطقي نمساوي بريطاني (1960/1952)، درس الفلسفة في جامعة أكسفورد، من أهم مؤلفاته "كيف نصنع أشياء بالكلمات" ترجمه صابر الحباشة إلى "أن نقول هو أن نفعل"، نظر للتداولية من خلال محاضرات التي ألقاها عام 1955 بعنوان: محاضرات وليام جايملس.

² أن ربول و جاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، تر: سيف الدين دغفوس و آخرون، مر: ليف زيتوني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 267 .

² مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص 41 .

سُخرية، توكيد، توبيخ... ويسميه (أوستين)، «الفعل الإنجازي الحقيقي»¹، أي العمل الذي يُنجز من خلال قول شيء ما.

– **الفعل الناتج عن القول act perlocutoire** وهو «العمل المتحقق نتيجة قولنا شيء ما»²، فهو يرتبط بالمخاطب (متلقي القول) وما يفعله نتيجة القول، وبالتالي يتسبب في إحداث آثار في مشاعر وتفكير المتلقي، لذلك نجد البعض يفضل تسميته «**الفعل التأثيري**»، أي ما يريد المتكلم إثارته في السامع، بعبارة أخرى فعل تَأثر المتلقي عن فعل تلفظ المتكلم.

ويرى (أوستين) أنَّ للفعل ثلاث خصائص: فعل دال، وفعل إنجازي أي إنجاز الأفعال الاجتماعية، وفعل تأثيري أي ترك آثار معينة من خلال فعل القول، فأوستين يقسم الأفعال إلى أفعال تدعو إلى إنجاز فعل ما ويسميتها أفعالاً إنجازية، وأفعال تدعو إلى ترك فعل شيء ما من خلال التأثير ويسميتها أفعالاً تأثيرية.

وقبل أن يقسم (أوستين) الفعل القول، ميز بين نوعين من الجمل: الجمل التي تستعمل للوصف – وصف الواقع – أطلق عليها مصطلح **الجمل الوصفية** (يقابلها في العربية الجمل الخبرية)، وهناك جملاً لا تصف الواقع ولا تقول شيئاً عنه، وإنما تسعى لتغييره، وهي الجمل الإنشائية، التي لا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب الذي نحكم به على الجمل الوصفية، بل يحكم عليها بمعيار التوفيق أو الإخفاق، ومن خلال هذه التقسيمات تبلورت نظرية أفعال الكلام.

أما (جون سيرل John Searle) * فقد قسم العمل اللغوي إلى ثلاث أعمال:

– **التلفظ بالكلمات**، أي إنجاز عمل التلفظ.

¹ المرجع نفسه، ص 42.

² آن ربول و جاك موشلار، التداولية اليوم، ص 267 .

* فيلسوف أمريكي من أتباع أوستين، تابع مشروع أستاذه – أوستين – من خلال مؤلفه "الأعمال اللغوية".

–الإحالة والإسناد، «إنجاز أعمال قضوية»¹، من أثباتٍ وأمر ونفي ووعيد، وهي أعمال متضمنة في القول.

–عمل التأثير بالقول: وهو «الأثر الحاصل نتيجة عمل ما»²، ويلاحظ هذا التأثير في المخاطب (المتلقي) من خلال سلوكه، فعله أو تفكيره.

والملاحظ أنَّ (سيرل) يلتقي مع أستاذه (أوستين) فيما ذهب إليه، فكان المختلف فيه هو المصطلح (العمل المتضمن في القول عند أوستين الإحالة والإسناد عند سيرل).

2.4. الافتراض المسبق pré supposition:

ويقصد به الخلفية المضمرة التي تُفهم من سياق* الخطاب، كقولنا مثلاً: أغلق النافذة، فمن الملفوظ يتبين أنَّ النافذة مفتوحة، وهذا افتراض مسبق يُفهم من السياق، وكقول: كيف حال زوجتك وأولادك؟ فمن خلال الخطاب نفهم أنَّ هناك علاقة بين السائل والمسؤول، وهي علاقة تسمح بطرح السؤال، كما نفهم من السياق أنَّ للرجل زوجةً وأولاداً حتى يُطرح عليه هذا السؤال، وكل هذا نسميه خلفية تواصلية أو افتراض مسبق.

¹ المرجع السابق، ص 267.

² المرجع نفسه، ص 267.

*السياق: (context) و هو الجوار اللغوي لوحدة ما (وحدة صوتية، كلمة، جملة، نص)، و يختلف عن مقام الخطاب (situation de discours)، و هو الملابسات غير اللغوية – خارج اللغة – يرتبط بالظروف الاجتماعية و السياسية و الثقافية و الإطار الزمني و المكاني.

3.4. الأقوال * المضمرة les sous-entendus :

هي نوع ثانٍ من أنواع متضمنات القول ونعني بها «كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن تحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث»¹، كقولنا: إنَّ السماء ممطرة، ومن هذا الملفوظ نستطيع أن نقول عدة معاني ونؤوله على أكثر من وجه، وذلك بحسب الخطاب والمقام الذي قيل فيه، مثلاً أن نفهم: عدم الخروج والمكوث في البيت، أو الإسراع إلى البيت، أو الدعوة إلى المبيت، أو التنبيه إلى إحضار مضلة... وغير ذلك من التأويلات التي تفهم من الخطاب وطريقة استخدام الألفاظ، والفرق بين الأقوال المضمرة والافتراضات المسبقة أن الأولى تتحدد من السياق الكلامي وطريقة استخدام الخطاب، بينما الثانية ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه.

4.4. الاستلزام الحواري (المحادثي):

جاء به الفيلسوف (غرايس Grice)*، ويقصد به المعنى الذي يفهم من خلال الحوار، وهو المعنى المستلزم الذي يُستشف من الحوار متجاوزاً بذلك المعنى الحرفي الأولي، مثل:

—هل زيد نال شهادة البكالوريا ومستعد لمتابعة دراسته بالجامعة؟

—إنَّ زيد لاعب كرة ممتاز.

*القول: هو حاصل التلفظ بجملة و يتغير بتغير الملابسات و القائلين، عكس الجملة وهي سلسلة من الكلمات يُتلفظ بها في ملابسات مختلفة و لا تتغير بتغير هذه الملابسات.

¹مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص32.

*بول غرايس (Paul Grice) : فيلسوف أمريكي(1913/1988)، من أهم فلاسفة اللغة و ممن كان لهم أثر كبير في توجيه الدرس الفلسفي للمعنى و كيفية تشكله في اللغة انطلاقاً من فهم أليات المحادثة، صاغ نظريته في الدلالة القصديّة من خلال محاضراته "محاضرات وليام جايّمس" التي ألقاها بهارفارد 1968 ونشرت لاحقاً سنة 1975.

فمن خلال الحوار يتبين لنا معنى سطحي أولي وهو أن زيد لاعب كرة ممتاز، وهناك معنى استلزامي يفهم من سياق الحوار وهو أن زيد لم يتابع دراسته الجامعية لعدم نيله شهادة البكالوريا.

5.4. نظرية الملاءمة:

وهي نظرية تداولية جاءت بها اللسانية البريطانية (ديردر ولسن D. Wilson) *، والفرنسي (دان سبربر D. sperber) ، وقد انبثقت من مجالين: علم النفس وفلسفة اللغة، حيث قلصت نظرية الملاءمة ما جاء به (غريس) في مبدأ الملاءمة، ويقصد بالملاءمة المناسبة، أي أن المتكلم «يستعمل المثير –stimulus- الأكثر ملاءمة لإبلاغ افتراضاته»¹، وعليه نظرية الملاءمة تتعلق بالمتكلم الذي يستلزم عليه أن يستخدم الاستدلال والمؤشرات اللغوية الملائمة لأفكاره وما يريد إيصاله للمتلقي حتى يكون أكثر إقناعاً.

6/4. مبدأ التعاون:

مصطلح من وضع (غريس)، ويعني به «المشاركون يتوقعون أن يساهم كل واحد منهم في المحادثة لتيسير تأويل أقواله»²، أي يتعاون المتكلم مع مخاطبه أثناء التلفظ بأقواله حتى يكون خطابه أكثر إقناعاً وذلك من خلال أربع مبادئ يؤسس لها غريس وهي عنده بمثابة قواعد لابد للمتكلم مراعاتها:

1. قاعدة الكم: ويعني بها تقديم المتكلم مجموعة من المعلومات تكفي المقام فلا

زيادة ولا نقصان.

* ديردر سوزان ولسن (Dirdre Susan Wilson) ولدت عام 1941، باحثة مختصة في اللسانيات، درست في جامعة لندن.

¹ المرجع السابق، ص38.

² أن ربول وجاك موشلار، التداولية اليوم، 55.

2. قاعدة النوع: ويعني بها نزاهة المتكلم فلا يقدم معلومات مغلوطة وكاذبة، كما ينبغي أن تتوفر له حجج كافية وقوية دامغة كافية لإثبات ما يريد إثباته.

3. قاعدة العلاقة (المناسبة): أن تكون المعلومات مناسبة للموضوع، وأن تكون هناك علاقة مناسبة بين أقوال المتكلم وأقوال سابقه.

4. قاعدة الكيف: ويعني بها التعبير بوضوح «أن نعبر بوضوح وبلا لبس قدر الإمكان ونقدم المعلومات بترتيب مفهوم، مثلاً الترتيب الزمني عندما نروي سلسلة من الأحداث»¹، أي كيفية إيراد المعلومة، إذ يُشترط فيها الوضوح والابتعاد عن التعقيد والإبهام.

كما يميز (غرايس) بين الدلالة والاستلزام الخطابي، فالأولى هو معنى الكلام والثانية «ما تم تبليغه ويتولد بكيفية تواضعية»²، أي أنه يميز بين المعنى المتواضع للكلام والمعنى المتولد من طريقة التبليغ، وهو معنى استلزامي لذا قسم طرائق التبليغ إلى:

– طريقة تواضعية، اصطلاحية، تستدعي استلزاماً تواضعيًا.

– طريقة محادثية تستدعي استلزاماً محادثيًا، وهو معنى متولد من طريقة المحادثة.

ويرى (غرايس) أن المخاطب -المتلقي- يقوم أو يجب عليه أن يقوم بعملية التفسير، أي تفسير انتهاك المتكلم للقواعد الأربع، فانتهاك المتكلم لقاعدة الكم، فلم يقدم معلومات كافية، يجب تفسير ذلك على أن المتكلم ليس على قدر كبير من العلم بالموضوع.

¹ المرجع السابق، ص 56.

² المرجع نفسه، ص 56.

7.4. الاستدلال :inférence

يؤسس لهذا المصطلح (جون سيرل) في كتابه "المعنى والعبارة"، ويقصد به أنه عملية فكرية منطقية «لربط المعطيات الملفوظة والسياقية والمحادثية والتداولية من أجل إنشاء الدلالة»¹، وبهذا المفهوم يكون الاستدلال عملية مرتبطة بالمتلقي، الذي يقوم بعملية التأويل والاستدلال، فيستدل على مجموعة من الجمل وطريقة أداء هذه الجمل للوصول إلى المعنى المراد، يقول (غوفمان): «ببساطة من المستحيل نطق جملة دون وسم تلفظها بلون تأثيري مدرك، كأن يكون الهالة العاطفية الخاصة التي يفضيها عليها الاتزان»²، فالجملة أثناء النطق بها تأتي مصبوغة بألوان العاطفة، حاملة لمعاني وأفكار صاحبها.

8.4. الإشارات الشخصية:

وهي مجموعة من الإشارات التي تدل على المتكلم كما المتلقي، فالخطاب يحوي على عناصر وأدوات دالة على المتكلم إن كان فرداً أو جماعة، كما يحوي إشارات تدل على متلقي الخطاب في عدده ونوعه وتعرف أنها «الإشارات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب، فالذات المتلفظة تدل على المرسل في السياق»³، فالتداولية تدرس مثل هذه الإشارات التي تدل على الذات المتلفظة بالقول والذات المتلقية له، انطلاقاً من مبدأ مفاده ممارسة فعل التلفظ تدل على المرسل والمرسل إليه في بنية الخطاب، وتنقسم الإشارات إلى:

– إشارات زمانية التي تربط الفعل بالزمن.

¹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص 153.

² المرجع نفسه، ص 149.

³ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص 82.

– إشارات مكانية التي تربط الفعل بالمكان.

ويعود اهتمام التداولية بالإشارات اللغوية باعتبارها جزء من علم العلامات (السيمائية)، فهي «مكون من مكوناتها، إلى جانب المكونين: علم النحو الذي يدرس العلاقة بين العلامات ببعضها، وعلم الدلالة الذي يدرس العلاقة بين العلامات بمعانيها وواقعها الخارجي، لتأتي التداولية مكملية للعلمين ولدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملها»¹، لذا فالتداولية تدرس العلامات اللغوية وتربطها بمستخدمها، فهي جزء لا يتجزأ من السيميائية هذه الأخيرة تختص بدراسة العلامات اللغوية وغير اللغوية.

ومن أجل أن تدرس التداولية علاقة النص بالسياق، أي دراسة الاستعمال اللغوي، استفادت من علم اللغة الاجتماعي وعلم النفس وعلم الاجتماع، لأن الاستعمال اللغوي عندها ليس تلفظاً فقط بل إنجاز عمل ما في الوقت نفسه، «الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطق لغوي ما فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي معيناً أيضاً في الوقت نفسه»²، فالتداولية تدرس الفعل اللغوي باجتماع العوامل السياقية الخارجية النفسية والاجتماعية، وحتى تتحقق هذه الدراسة صيغت "نظرية أفعال الكلام" التي تربط الفعل الكلامي بالحدث النفسي والاجتماعي.

والممتنع لنظرية أفعال الكلام، وبقية النظريات التي جاء بها أصحاب التداولية يُلاحظ أنَّ لها إرهاصات عربية، وجذور في التراث النقدي العربي، فمعظم المفاهيم التي جاء بها (أوستين) وغيره في الدرس التداولي، يجدها تكاد تلتقي بما جاء به النقاد العرب القدامى خاصة في علم المعاني.

¹ تون فان دايك، علم النص-مدخل متداخل الاختصاصات-تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2000، ص115.

² المرجع نفسه، ص117.

5. التداولية والتراث النقدي العربي:

تلتقي نظريات الدرس التداولي -خاصة ما جاء به أوستين- بما أسس له العرب: فلاسفة وبلاغيون ونُحاة وأصوليون ونقاد، أمثال سيبويه وأبي نصر الفارابي والقاضي عبد الجبار الهمذاني والسكاكي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم كثير، وتكمن نقطة الالتقاء مثلاً في المصطلحات، ما نجده في أغراض الأسلوبين: الخبري والإنشائي (طلبي وغير طلبي) مع الفعل التأثري أو الفعل الناتج عن القول عند أوستين وسيرل.

ونستطيع أن نلمس ذلك الالتقاء -على سبيل التمثيل لا الحصر- عند فيلسوف عربي وناقد عربي، فالفيلسوف (ابن رشد) في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"، يكشف عن العلاقة بين الكلام وصاحبه (المتكلم)، وهي علاقة تفاعلية، حيث نجده يقول: «الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلاً يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه، أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي في نفسه، وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل»¹، ويشير ابن رشد إلى أن المتكلم أثناء الكلام يفعل فعل ليدل المخاطب على فعل ما، وهو ما جاء به أصحاب التداولية (الفعل المتضمن في القول والفعل الناتج عن القول).

أما الناقد نجد (عبد القاهر الجرجاني) في كتابه "دلائل الإعجاز في علم المعاني"، وفي فصل يورده بعنوان "في اللفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره"، يشير إلى معنى المعنى، وهو المعنى الذي يُستشف من طريقة استخدام الكلام، عن طريق الكناية والمجاز يقول: «إن يُريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً

¹ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981. ص287.

عليه»¹، ويسير الجرجاني بالبحث إلى تحسس العلاقة بين المتكلم وخطابه، إذ أن المعاني تترتب في نفس المتكلم لتأتي الألفاظ تُبع في ذلك، ويقوم بتحليل هذا من خلال نظريته المشهورة " نظرية النظم"، يقول فيذلك: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه سبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس»²، فهو يُقر أن الألفاظ تابعة للمعاني في النظم، وأن الكلمات تترتب معانيها في النفس وتأتي مرتبة أثناء التلفظ بها وفق هذا الترتيب - الترتيب النفسي- فيلفظ المتكلم أقواله بما يخدم مقاصده والعلم بمقاصد الناس، أي الكلام بمقتضى الحال «لأن الحدث اللغوي ينطلق من نفس المتكلم ويتركب على أنسجة اللغة وفقاً لمواضع قد استقرت بين المتحاورين، وهكذا لا يكون الخطاب إثباتاً أو نفيًا، ولا يكون خبراً أو استخباراً، كما لا يكون أمراً أو نهياً إلا بفعل المتكلم»³، وهذا ما تفتن له الجرجاني في أن المتكلم هو صانع الحدث اللغوي ناهياً وناظياً وآمراً .

ومجمل القول، وجدت عند العرب دراسات لغوية نحوية وبلاغية ونقدية ربطت الفعل الكلامي بصاحبه، وهي دراسات تلتقي بما جاءت به التداولية في كثير من الأمور، ولعل وجود جمل تتردد على ألسنة النقاد والبلاغيين مثل: العلم بمقاصد المتكلم، والكلام بمقتضى الحال، تثبت اهتمام الباحث العربي بالفعل اللغوي وظروف استعماله والسياقات التي استخدم من أجلها.

والتداولية كمنهج لغوي، جاء ليسلط الضوء على جانب من جوانب الدراسات اللغوية، فقد اختصت بدراسة استعمال اللغة، وربطت الفعل اللغوي بظروف استخدامه، أي

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه: محمد عبدة و رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص52.

² المرجع نفسه، ص45.

³ عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص293.

ربط المقال بالمقام، ومن أجل تحقيق ما جاءت من أجله صاغت مجموعة من النظريات منها نظرية الملاءمة، ونظرية أفعال الكلام، ونظرية الحجاج هذه الأخيرة سنقوم بالبحث في خلفياتها وأهم أسسها ومبادئها ومن نظر لها.

الفصل

الأول

يجب قبل التحدث عن استراتيجيات الحجاج وتقنياته أن نتحدث عن مفهوم كل من الإستراتيجية والحجاج ونزيع بعض الغموض عن هذه المصطلحات.

1. الإستراتيجية:

كثيراً ما يستخدم مصطلح الإستراتيجية مقترناً بمصطلح ما، عادة ما يبين مجال الإستراتيجية أو حدودها، كقولنا: استراتيجيات الخطاب، استراتيجيات الحجاج، استراتيجيات التعليم، استراتيجيات العمل... إلخ، وعليه تعرف الإستراتيجية بأنها «طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكم بها»¹، فالإستراتيجية إذن خطة أو مجموعة من الخطوات التي يجب إتباعها من أجل الوصول إلى الأهداف وتحقيق الغايات.

ويرى (ميشال فوكو M: foucouct) أنها «عمل عقلي مبني على افتراضات مسبقة، وتتجسد من خلال أدوات ووسائل تناسب سياق استعمالها»²، ويشير "فوكو" إلى أن الإستراتيجية عملية عقلية ذهنية سياقية - مرتبطة بالسياق - فهي تتغير بتغير السياقات التي تستعمل فيها، لأن الإستراتيجية خطة لها أدواتها ووسائلها، فلا بد أن تختلف الخطط وطرقها باختلاف المجالات وبالتالي تختلف الاستراتيجيات.

¹ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة تداولية، ص 53.

² المرجع نفسه، ص 55.

2. مفهوم الحجج:

1.2. لغة:

أولاً: في الجذور العربية

الحجاج من الفعل حَجَجَ، يُحَاجِجُ، حِجَاجًا، جاء في لسان العرب «يقال حاجبته، أُحَاجُّه، حَاجًّا، ومُحَاجَّه حتى حجبتة، أي غلبته بالحجج التي أدليت بها... والحُجَّة: البرهان، وقيل الحجة ما دافع به الخصم... ورجلٌ مُحَجَّجٌ أي جدلٌ، والتَّحَاجُّ: التخاصم، وجمع الحجة حُجَجٌ وحِجَاجٌ، وحَاجَّه مُحَاجَّةً وحَاجًّا، نازعه بالحجة، وحَجَّه يُحَجُّه حَجًّا: غلبه بالحجة، وفي الحديث: فَحَجَّ آدم موسى أي غلبه بالحجة»¹، وعليه الحجج مأخوذ من الفعل حجج أي الجدال والتخاصم والتنازع والغلبة بالحجة.

وجاءت الحجة بمعنى القصد لذلك سُمِّيَ الحُجُّ حَجًّا لأنه قصد بيت الله الحرام «واختجَّ بالشيء: اتخذ حجة، قال الأزهري، إنما سميت حجة لأنها تحج أي تقصد لأن القصد لها وإليها»²، فالحجة تعني القصد والحجاج هو التبادل والتخاصم والتنازع بالحجج، واستخدام البرهان في ذلك من أجل غلبة الخصم ودحض حججه بحجج أقوى منها.

¹ ابن منظور جمال الدين الأنصاري، لسان العرب، باب الحاء، م2، ج10، مادة حجج، ص779.

² المرجع نفسه، ص779.

ثانيًا: في الجذور الغربية.

أُخذت كلمة الحجاج (Argument) من الفعل اللاتيني (Arguere)، وتعني «جعل الشيء واضحًا ولامعًا وظاهرًا»¹، كما يشير المصطلح (Argue) في الانجليزية إلى «وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل طرف منهما إقناع الآخر بوجهة نظره من خلال تقديم الأسباب والعلل التي يراها حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو أسلوب ما»²، فالحجاج يستلزم طرفين ومشكلة يقام حولها جدال وتخاصم فيقوم كل طرف بتقديم حجج تثبت ما يريد إثباته، ويحاول دحض حجج الآخر، وهو المعنى الذي أشارت إليه المعاجم العربية وتشترك فيه.

ويرى (أندي لالاند André Lalande) أن الحجاج «سلسلة من الحجج بشكل كلي إلى تأكيد النتيجة نفسها»³، فالحجاج عنده طريقة في ترتيب وتنظيم الحجج من أجل استعراضها.

2.2. اصطلاحًا:

كثرت التعريفات التي تزخر بها الكتب التي تناولت نظرية الحجاج الحديثة، ويصعب إيرادها كلها، وسنكتفي ببعض التعاريف:

يعرفه (شال فرائز فان إيميرن)* بقوله «فاعلية لفظية واجتماعية للعقل ترمي إلى مضاعفة قبول وجهة مخالفة في نظر السامع أو القارئ وذلك من

¹ حافظ اسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه و مجالاته (دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة)، عالم الكتب الحديث، اريد، الأردن، ط1، 2010، ج1، ص2.

² المرجع نفسه، ص2.

³ المرجع نفسه، ص2.

* من أعلام النداولية، له دراسات في جانب الاستعمال اللغوي.

خلال جملة من المقترحات تستعمل في البرهنة¹، فالحجاج عنده تفاعل بين الألفاظ (الأقوال الحجاجية) ومرتبطة بالمجتمع والعقل الإنساني.

وهو «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، تساهم في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب»²، أي هو طريقة أو منهج لدراسة الخطاب (المنهج الحجاجي).

فالحجاج نظرية حديثة أتت بها مجموعة من فلاسفة اللغة، وأوجدوا لها أسس تستخدم في تحليل الخطاب والبحث عن وسائل الإقناع فيه، أي استراتيجيات تُتبع في قراءة النصوص (الأدبية- الدينية- السياسية) قراءة لغوية حجاجية، وبالتالي فالحجاج نظرية جديدة نظّر لها كل من (شاييم بيرلمان ch. Perlman- ميشال مايير M. Meyer - جان ميشال آدم jean Michel Adam- جان بليز غريز jean blaise Grize - أوليفر روبول Oliver - reboul أولبريخت تيتيكا O.tyteca).

ويعرف الحجاج* أنه «إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجة اللغوية وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها»³، لأن نظرية الحجاج تنطلق من فكرة مفادها أن اللغة وظيفة جوهرية هي الوظيفة الحجاجية «اللغة

¹ علي الشبعان، الحجاج بين المنوال و المثال (نظرات في أدب الجاحظ و تفسيرات الطبري)، مسكلياني للنشر، زعوان، تونس، ط1، 2008، ص18.

² حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص153.

* هناك فرق بين الحجاج (argumentation) والبرهنة (Démonstration) (أو الاستدلال المنطقي): فالحجاج استنتاج احتمالي و البرهنة استنتاج منطقي، ينظر أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، ص14، 15، 16.

³ المرجع نفسه، ص153.

تحمل في ذاتها خاصية الحجاج بامتياز»¹، لذا من الصعب بكثير أن نتحدث عن عملية تواصلية خالية من الوظيفة الحجاجية.

وقد صرح (بيرلمان و تيتيكا) أنّ «ما كانا يبحثان فيه كان القول قد فصل فيه في علم شديد القدم منسي حاليًا ومستهجى أي بلاغة الإقناع عند القدماء»²، وعليه البلاغة الجديدة أو نظرية الحجاج التي جاء بها بيرلمان - ومن معه- قد استلهمت من خطابة أرسطو وأجرى عليها تعديلات يقول: (بيرلمان) «ولكنني إذ أعالجها من زاوية هموم المنطق»³، أي أنه قريباً من الجدل، مبعداً إياها من البلاغة الشعرية الجمالية، فيعرف (بيرلمان) نظرية الحجاج قائلاً: «موضوع نظرية الحجاج هو: دراسة التقنيات الخطابية الهادفة إلى حث النفوس على التسليم بالأطروحات المعروضة عليها، أو تقوية ذلك التسليم»⁴، ويشير إلى أن هدف نظرية الحجاج يكمن في دراسة الاستراتيجيات التي يحتويها الخطاب، والتي تعمل على حمل الآخر على الاقتناع لما عرض عليه من الأطروحات أو زيادة وتقوية ذلك الاقتناع، وهو تقريباً تعريف أرسطو للخطابية وهي عنده «قوة تتكلف الإقناع»⁵، أي هي فن الإقناع.

3. الحجاج والجدل في الثقافة العربية:

3.1. مفهوم الجدل:

وجد الجدل بوجود الإنسان، لأن طبيعة الإنسان الجدل، قال تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شئناً جدلاً﴾ [سورة الكهف الآية 54].

¹ المرجع السابق، ص 153.

² المرجع نفسه، ص 153.

³ محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004، ص 133.

⁴ محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل و التداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، ص 70.

⁵ المرجع نفسه، ص 69.

والجدال لغة مأخوذ من مادة جَدَل: «والجدل: شدة الحبل، وجدلتُ الحبل أجْذله جدلاً إذا شددت قتله وفتلته فتلاً محكماً... وهو مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به، لإظهار الحق، فإن ذلك كان محموداً، لقوله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، ويقال إنه لجَدَل إذا كان شديد الخصام»¹، فابن منظور يجعل الجدل حجاجاً والحجاج جدلاً، فيقول في الحجاج: رجل مُحَاجِّجٌ أي جدل، ويقول في الجدل هو مقابلة الحجة بالحجة، كما يجعل لهما معاني مشتركة فكلاهما يعني المخاصمة والمغالبة.

ويعرف النووي رحمه الله- الجدل بقوله: «إحكام الحجة البليغة على الخصم»²، ويرى أنه سمي جدلاً لأن «كل واحد منهما يحكم خصومته وحجته إحكاماً بليغاً على قدر طاقته تشبيهاً بجدل الحبل وهو إحكام قتله»³، وعليه يربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، أي إحكام الحجة والدليل مثلما إحكام فتل الحبل.

والجدل في الشرع نوعان:

¹ ابن منظور جمال الدين الأنصاري، لسان العرب ، مادة جدل، م2، ص571.

² محمد ابراهيم العثمان، أصول الجدل و المناظرة في الكتاب و السنة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2000، ص11.

³ المرجع نفسه، ص11.

1. جدل محمود:

وهو «ما كان في تقرير الحق وباستعمال الأدب»¹، أي جدل لإثبات الحق ودحض الباطل قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتّي هي أحسن﴾ [سورة النحل: الآية 120].

2. جدل مذموم:

وهو جدل أهل الباطل، ويكون «بسوء أدب، أو بجهل، أو في نصرة باطل»²، قال الله تعالى: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ [سورة غافر: الآية 5].

وقد شهدت الأمة الإسلامية جدلاً لم تشهد مثله من قبل، وذلك في عصر الحسن البصري، وعصر الجاحظ (العصر العباسي)، وكان هذا ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة»³، وقد افترق العرب على ثلاث وسبعين فرقة أشهرها: المعتزلة، الأشاعرة، الإباضية، الإسماعلية، القرامطة، النصيرية... إلخ، وكل فرقة انقسمت على نفسها إلى عدة فرق أخرى، ليصل عددها إلى اثنين وسبعين فرقة، كل واحدة تكفر الأخرى عن طريق الجدال بالحجة.

ونتج عن احتدام الجدال بين هذه الفرق ظهور ما يسمى "علم الكلام" ويعرف بأنه: «العلم المتعلق بالأحكام الفرعية، أي العلمية وسمي علم الشرائع

¹ المرجع السابق، ص 11.

² المرجع نفسه، ص 11.

³ عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين (المعتزلة، الأشاعرة، الإسماعلية، القرامطة، النصيرية)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، ص 23.

والأحكام... وهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير، بإيراد الحجج ودفع الشبهة»¹، لذلك أصبح الجدل عند العرب علمًا مستقلاً بذاته كباقي علوم الشريعة، وازدهر بفعل علم الكلام الذي ما فتئ أن ظهر علماء متكلمين يمثلون فرقهم أمثال إسحاق بن إبراهيم النظام وتلميذه الجاحظ متكلمي المعتزلة.

2.3. الجاحظ والجدل:

ينتمي الجاحظ إلى فرقة المعتزلة، وقد أُتيح له أن يتلقن مبادئ الجدل من شيخه أبي إسحاق بن إبراهيم النظام، وألف في ذلك عدة مصنفات في الجدل الاعتزالي: فضيلة الاعتزال، خلق القرآن، نظم القرآن، وبما أن الجدل ما هو إلا وسيلة الحجاج لإيراد الحجة ودحض الحجة المضادة «الحجاج يستعين بالجدل لتفكيك استراتيجيات المخاطب الدفاعية وتعطيل قواه»²، فإن الجاحظ في مناقشاته ومعارضاته يعتمد على التحليل والتعليل والجدل والحوار، معتمداً على «مبادئ الفكر الاعتزالي أن يمضي في تأسيس خطاب حجاجي ذي ملامح خاصة يعتمد على التحليل والتعليل وتوليد المعاني»³، فالجاحظ لم يكتف بالفكر الإسلامي وأفكار المعتزلة، بل اطلع على الثقافة اليونانية (فلسفة اليونان) خاصة وأن العصر العباسي شهد حركة ترجمة الآثار اليونانية، فهو عصر اختلاط الأجناس والثقافات، لذلك اتسم جداله بالفكر اليوناني ومبادئ الاعتزال في تأسيس خطابه الحجاجي.

¹ المرجع السابق، ص 7.

² عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص 11.

³ ينظر: محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب)، مكتبة الطالب الجامعي، ط2، ص 149.

ويمكن القول أن الحجاج وجد في الثقافة العربية، لأن هذه الأخيرة عرفت في فترات كثيرة تضارب الأفكار والآراء، فمنذ أن جادلت الملائكة الله في خلق خليفة في الأرض قال الله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ أَلَمْ أَنْبِئُكَ أَنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: الآية: 30]، ومجادلة إبليس تكبراً، قال الله تعالى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة الأعراف: الآية: 12]، والناس يتجادلون بطبيعتهم، حتى أصبح الجدل عند العرب علماً مستقلاً بذاته وصنفت فيه كتباً لا تعد ولا تحصى.

4. نظرية الحجاج: الأصول الفلسفية والمرجعية المعرفية.

ارتبط ظهور نظرية الحجاج ضمن آليات تحليل الخطاب بتطور المجتمع وتضارب الأفكار فيه، هذا المناخ المتضارب أفرز جو حوارى تتحكم فيه المنافسة التي مست كل الميادين سواء الفكرية والعلمية والتواصلية، وهذا لا يعني أنها نظرية وجدت حديثاً لأننا إذا تتبعنا التراث الغربي والعربي على السواء لوجدنا جذور وإرهاصات لها، حتى أن (بيرلمان) يقر في كتابه المشترك مع زميل له: (تيتيكا)* أن ما بحث عنه وجده متأصلاً قديماً في الثقافة اليونانية القديمة، وعليه تكمن مرجعيات نظرية الحجاج في:

4.1. الخطابة السوفسطائية:*

يعتبر اليونانيون أول من نظر لفن الخطابة، وقد بدأ التنظير مع أفلاطون وأرسطو بعد طغيان الخطابة السفسطائية، وهي خطابة تسعى للتأثير في

*عنوان الكتاب: مصنف في الحجاج (البلاغة الجديدة) و لبيرلمان كتاب : امبراطورية البلاغة traite de Irgumentation la novellerhetorique و هو كتاب يسعى لضبط العلاقة بين الحجاج و البلاغة .
sophists* هي في الأصل لقب تقدير و تعني في معناها: الرجل الحكيم ذا الكفاءة المتميزة في كل شيء.

العواطف والأهواء وتحويل هذا التأثير إلى إقناع، «فالسفسطائيون كانوا يستعملون في الغالب سلطة القول في فضاءات السلطة»¹، لذا كانت الخطابة السفسطائية خطابة مغلوبة حاول أفلاطون وكذا تلميذه أرسطو تسديدها.

2.4. الخطابة عند أفلاطون وأرسطو:

انطلق كل من أفلاطون وأرسطو من الخطابة السفسطائية التي كانت في رأيهما خطابة مغلوبة، لذلك نجد أفلاطون وقف ضد هذه الخطابة وحاول تقييدها ودعا إلى ضرورة استخدامها في أغراض سامية وأهداف نبيلة.

كما سعى أرسطو في كتابه "الخطابة" إلى توجيه الخطابة السفسطائية فأوجب على الخطيب شروطاً أولها «أن يتعرف على نفسية الجمهور ليخطب فيه بما يناسبه ويلئم حالته»²، أي ضرورة تحلي الخطيب بمبادئ أخلاقية ومخاطبته بمقتضى الحال، والابتعاد عن تضليله وتشويشه بأفكار كاذبة وأراء واهية بعيدة عن الحقيقة، فالخطابة تسعى إلى تقريب المتلقي من الحقيقة وإبعاده عن الأوهام، لذلك وقف أرسطو ضد أغاليط السفسطائية وجدلهم المبني على السفسطة التي تهدف إلى تغليب الجمهور فدفع «بريطورية نحو الجدل مبعدا إياها عن السفسطة»³، ويعرف أرسطو الخطابة بقوله: «الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع»⁴، فالخطابة عنده هي طرق الإقناع أو فن الإقناع، ويميز هذه الطرق في:

¹ حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، الهيئة العلمية لمكتبة الإسكندرية، مصر، دط، ص 51.

² حافظ اسماعيل علوي، الحجاج مفهومه و مجالاته، ص 7، 8.

³ المرجع نفسه، ص 28.

⁴ المرجع نفسه، ص 28.

- أخلاق القائل:

ويسمىها حجة الإيتوس (Ethres) وهي مجموعة من الصفات التي تتعلق بالخطيب فتزيد في قوة حجته.

- حجة الباتوس (pathos):

وهي حجة تتعلق بالمتلقي وهو الجمهور الذي توجه له الحجج وتصير «السامع في حالة نفسية ما»¹، أي التأثير في المتلقي والاستفادة من حالته النفسية والعقلية.

- حجة اللوغوس (logos):

وهي حجة تتعلق بالقول نفسه وتعني الاعتناء بالألفاظ والمعاني التي من شأنها التأثير في المتلقي، أي الاهتمام بالقول نفسه «من حيث أنه يثبت أو يبدو أنه يثبت»²، وهنا نشير إلى أن الحجج درجات منها القوية ومنها الضعيفة.

ويجعل أرسطو من هذه الحجج أركان لا بد منها حتى يكون الإقناع ناجعا والحجاج فعالا، ويبدو أنه يركز في نظريته هذه على حجة الإيتوس (أخلاق الخطيب) ومدى تأثيرها في المتلقي، لذلك ربط الخطابة بالأخلاق فهي جزء لا يتجزأ منها، وهنا يكمن الفرق الجوهرى بين (الخطابة/البلاغة) القديمة مع أرسطو و(الخطابة/البلاغة) الجديدة مع بيرلمان، فالأولى تهتم بالخطيب وتجعل منه المركز في عملية الحجاج والإقناع بينما الثانية تهتم بالقول ومدى فعاليته في عملية الحجاج، وبالتالي الأولى بلاغة أخلاقية والثانية بلاغة حجاجية.

¹المرجع السابق، ص29.

²المرجع نفسه، ص29.

3.4. أنواع الخطابة عند أرسطو:

يقسم أرسطو الخطابة بحسب تقسيمه للحجج (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس) فيجعل منها ثلاث:

1. **الخطابة المشورية:** وهي الخطب التي تسعى لبيان النافع والضار، وتتناسب مع حجة الإيتوس، أي أنها ترتبط بأخلاق الخطيب «تحلي الخطيب بصفات الخير»¹ حتى تكون الحجج قوية دامغة.

2. **الخطبة التثبيتية:** تبنى على أساس مدح الشريف وذم الخسيس ومثل هذه المواضيع تناسبها حجة الباتوس التي تعتمد إلى إثارة انفعال السامعين وتوجيه هذه الانفعالات حسبما يرتضيه الخطيب.

3. **الحجة المشاجرية:** تهدف هذه الخطب إلى بيان قيم العدل والظلم، فتدافع عن الأول وتبين قيمته الايجابية، وتتهم الثاني وتبين أثاره السلبية، لذا تناسب مثل هذه القضايا حجة اللوغوس التي تهتم بالكلام نفسه.

ويبدو أن بلاغة أرسطو تولى اهتماما كبيرا بالأخلاق، بينما موضوع البلاغة الجديدة كما بينها (بيرلمان) هو حجة اللوغوس أي مخاطبة العقول بخطاب معقول فتجعلها تقنع وتسلم بما عرض عليها من حجج أو تزيد في ذلك الاقتناع والتسليم، فالمبدأ الأساسي في البلاغة الجديدة هو العقل، فالحجاج عندها خطاب عقلي موجه لعقول السامعين للتدبر والتفكر في الحجج التي طرحت، وقد ابتعدت عن الاهتمام بالعوامل الخارجية المحيطة بالخطاب الحجاجي، فلم تول اهتماما بأخلاق الخطيب أو انفعال المخاطب، والمركز الأساسي الذي انطلقت منه هو حجة اللوغوس أي الكلام والعقل.

¹ ينظر: حمادي صمود، أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 276، 277، 280.

5. الحجاج في الدراسات الحديثة (نظرية الحجاج/البلاغة الجديدة):

انبثقت نظرية الحجاج من فلسفة اللغة العادية وتحديدًا من نظرية أفعال الكلام التي أسس لها "أوستينو سيرل"، وقد وضع أسس هذه النظرية مجموعة من اللغويين والفلاسفة أمثال "أوزفالد ديكر و بيرلمان وتيتكا".

وتهتم نظرية الحجاج باعتبارها نظرية لغوية لسانية- بالوسائل اللغوية التي تتوفر عليها أي لغة طبيعية من أجل توجيه الخطاب وجهه حاجية، لأنها تتطرق من فكرة عامة مفادها «أنا نتكلم عامة من أجل التأثير»¹، وعليه نظرية الحجاج تسعى لبيان وإثبات أن اللغة وظيفة جوهرية هي الوظيفة الحجاجية.

6. أسس نظرية الحجاج:

سعى أصحاب نظرية الحجاج إلى وضع مجموعة من المبادئ والقواعد العامة لتحليل الخطاب تحليلًا لغويًا واستنباط مكامن الحجاج فيه وأهم ما جاءوا به:

1.6. الحجة والنتيجة:

يرى أصحاب نظرية الحجاج وعلى رأسهم أوزفالد ديكر* أن الحجاج يقوم على تقديم حجج وأدلة معينة للوصول إلى نتيجة معينة، وبالتالي يفرض على المتكلم إنجاز مجموعة من الأقوال تمثل حججا ومجموعة أقوال أخرى تمثل نتائج تستخلص من الحجج، كقولنا:

—الساعة تشير إلى الثامنة، أسرع.

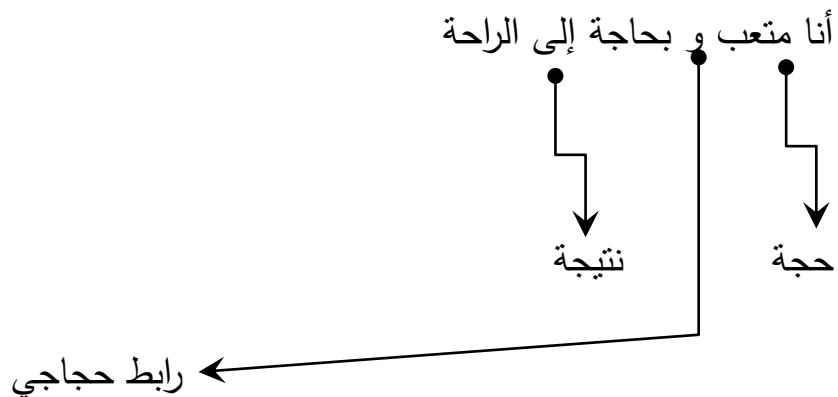
¹ أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص14.
*لغوي فرنسي وباحث في علم النفس، اهتم بالدراسات اللغوية والحجاجية، اهم مصنفاته: السلام الحجاجية أو السلميات الحجاجية، القول واللاقول، وكتاب مشترك مع أنسكومبر: الحجاج في اللغة.

فالجملـة الأولى تمثل حجة والثانية تمثل نتيجة مستخلصة منها.

وقد تكون الحجة جملة أو فقرة أو نصا، وقد تكون مشهدا من الواقع (مشهد من التاريخ أو الواقع الحاضر أو المستقبل ما قد يكون-)، وقد تكون ظاهرة أو مضمرة وكذلك النتيجة، كقولنا مثلا: الجو بارد، فالنتيجة مضمرة تفهم من سياق الكلام كأن تكون ضرورة لزوم البيت أو عدم التأخر للعودة إلى البيت...

وبالتالي فأهم صفة تتميز بها كل من الحجة والنتيجة أنهما مرتبطتان بالسياق الكلامي فهما نسبيتان، لذا فالحجاج نسبي غير مطلق لأن الحجة قد تكون قوية وضعيفة وحجج أضعف (حجج واهية)، وعليه تكون هناك حجج قابلة للإبطال والدحض والرد عليها بحجج أقوى منها.

كما أن العلاقة التي تربط الحجة بالنتيجة ويسمىها "ديكرو": **العلاقة الحجاجية**، وهي ليست علاقة منطقية ولا تعتمد على الاستنتاج فهي علاقة احتمالية، فعلاقة الحجة بالنتيجة علاقة احتمال وهي علاقة «تختلف بشكل جذري عن علاقة الاستلزام أو الاستنتاج المنطقي»¹، ويمكن أن نضرب مثلا كقولنا:



¹ المرجع السابق، ص 20.

فالعلاقة بين الحجة والنتيجة في المثال السابق ليست علاقة استلزامية منطقية، وإنما هي علاقة احتمالية، وعليه يكون الحجاج مرناً نسبي سياقي يختلف باختلاف السياق واختلاف الحجج والنتائج.

2.6. الروابط الحجاجية:

مصطلح من وضع (ديكرو)، ويقصد به مجموعة من الأدوات اللغوية التي تربط بين الحجج فيما بينها، وبين الحجج والنتائج، ففي اللغة العربية نجد الروابط تتمثل في: حروف العطف والربط، الظروف... إلخ

وكذلك نجد روابط بين الحجج والنتائج من ذلك: إذن، لهذا، وبالتالي... وقد تحذف الروابط وتأتي مضمرة.

3.6. العوامل الحجاجية:

يفرق ديكرو بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، فهذه الأخيرة «تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما»¹، ونجد العوامل الحجاجية تتمثل في مجموعة من الأدوات مثل قولنا: تقريبا، ربما، كأن، قليلا، كثيرا، إلا، وكل أدوات القصر.

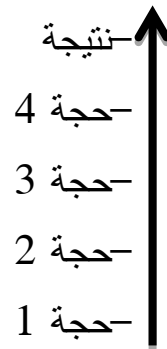
4.6. السلاسل الحجاجية:

هو مصطلح من المصطلحات التي جاء بها أصحاب نظرية الحجاج، الذين انطلقوا من مبدأ ثابت لديهم مؤداه أن الحجاج: «هو مجموعة من الملفوظات التي يبني عليها المخاطب كلامه»²، غايته في ذلك محاولة التأثير في المتلقي

¹ المرجع السابق، ص 27.

² حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، ص 164.

واقناعه بجدوى حججه، وعليه «تترتب هذه الملفوظات وتبنى بدرجات متفاوتة تتراوح بين الضعف والتوسط والقوة، من أجل الوصول إلى النتيجة المرجوة»¹، أي أن السلالم الحجاجية تبنى على أساس ترتيب الحجج المتفاوتة فيما بينها، فأبسط تعريف للسلم الحجاجي هو «علاقة ترتيبية الحجج»²، ويمكن أن نرسم لهذه العلاقة بـ:



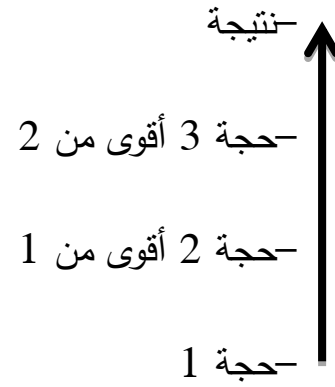
فالسلم الحجاجي هو مجموعة من الحجج يوجهها المخاطب وجهة محددة بالطريقة التي يراها أكثر إقناعاً، فالحجة والنتيجة والروابط والعوامل الحجاجية هي الأدوات التي يمتلكها المحاجج ويستعملها ويرتبها ترتيباً يضمن من خلاله التأثير والإقناع.

وتتصف السلالم الحجاجية بصفيتين:

1. كل حجة ترد في درجة معينة من السلم تكون الحجة التي تعلوها أقوى منها.

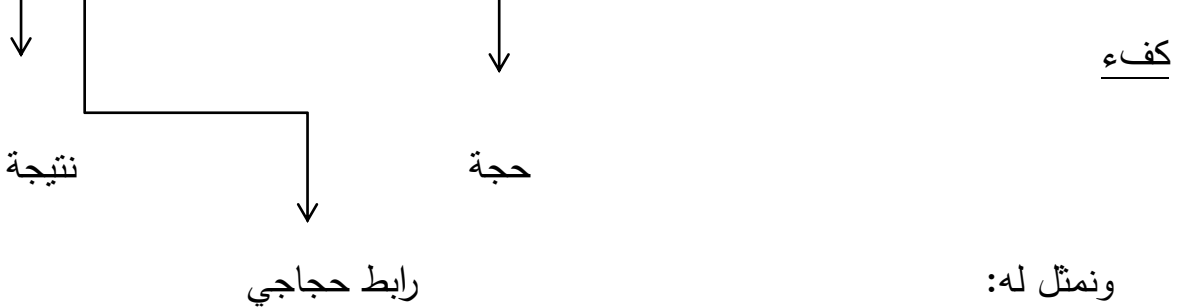
¹ المرجع السابق، ص164.

² أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجج، ص21.

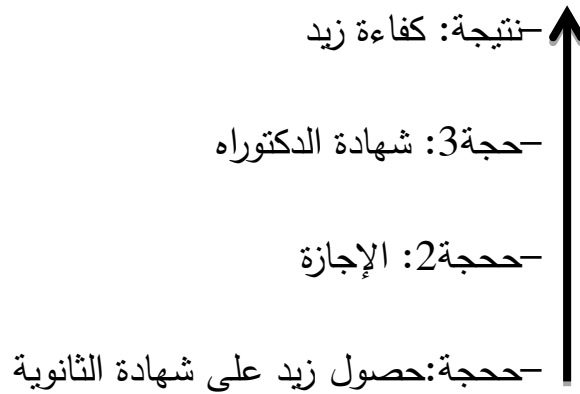


2. إذا كانت الحجة 2 تؤدي إلى النتيجة، فإن الحجج 1 و 3 تؤدي إلى نفس النتيجة

والعكس غير صحيح، كقولنا : حصل زيد على شهادة الثانوية والإجازة والدكتوراه إذن زيد



ونمثل له:



الحجة 3 هي أقوى حجة

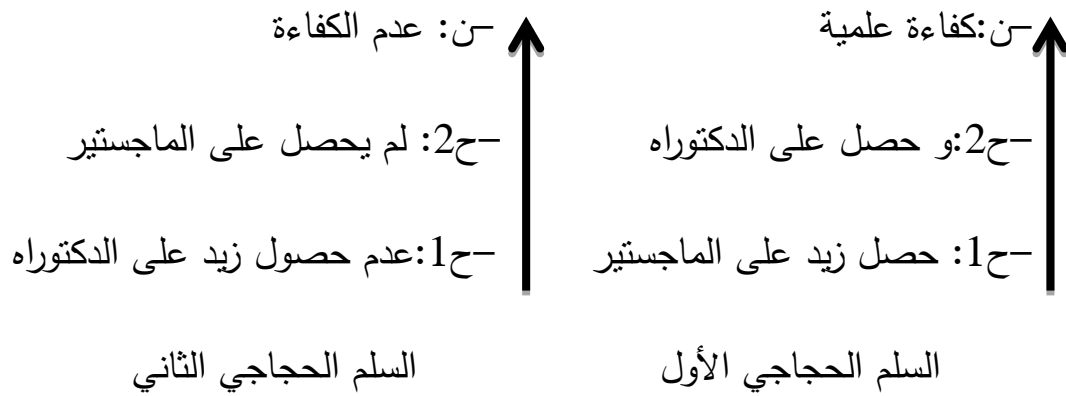
ويجعل أصحاب نظرية الحجاج للسلام الحجاجية قوانين أهمها:

1. قانون النفي: إذا نفيت الحجة، نفيت النتيجة، مثل:

زيد مجتهد، نجح في الامتحان

زيد لم يجتهد، لم ينجح في الامتحان.

2. قانون القلب:



-حصل زيد على شهادة الماجستير وحتى الدكتوراه فهو كفاء.

-لم يحصل زيد على شهادة الدكتوراه وحتى الماجستير فهو غير كفاء.

في السلم الحجاجي الأول تعتبر الحجة الثانية، حصول زيد على الدكتوراه أقوى حجة تدل على كفاءته العلمية، أما في حالة عدم كفاءته تعتبر الحجة الثانية في السلم الثاني: عدم حصول زيد على شهادة الماجستير أقوى حجة لتدل على عدم كفاءته.

3. قانون الخفض:

مصطلح مرتبط بالسلم الحجاجي ويقصد به: «أن الصدق القول في مراتب معينة في السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها»¹.

5.6. الهرميات (les hiérarchies):

يرتبط هذا المصطلح بالقيم التي يحاجج بها، إذ أن القيم نسبية تخضع للتدرج «فالقيم ليست مطلقة وإنما هي خاضعة لهرمية فالجميل درجات وكذلك القبيح»²، وجاءت الهرمية من درجة تصديق الجمهور للقيم وتسليمهم بها، فالجمهور الذي يتكون من عدة أفراد يختلفون في الأفكار والآراء والقناعات ستختلف درجة تسليمهم لهذه القيم، وبالتالي القيم لديهم ليست على درجة واحدة، وهناك نوعين من الهرميات:

1. هرمية مجردة: وهي هرمية مرتبطة بالقيم المعنوية غير محسوسة كقولنا: العدل أفضل من الشجاعة.

2. هرمية محسوسة: كقولنا: الإنسان أفضل من الحيوان.

6.6. العواطف والأهواء/الحجج العاطفية:

يعمد الخطاب الحجاجي إلى التأثير في القلوب كما العقول، ويسعى إلى إثارة الوجدان والتعاطف مع الموضوع كما يسعى إلى إثارة الأذهان والتفكير فيه حتى يكون التأثير والإقناع ناجعًا تامًا، لذلك «فالحجج العاطفية مثل الحجج

¹ أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، ص25.

² عبد الله صولة، في نظرية الحجاج -دراسات و تطبيقات- دار الجنوب للنشر و التوزيع، تونس، ط2010، ص1، ص26.

المنطقية¹، تكون ناجعة تؤثر في المتلقي أحياناً وضعيفة واهية في أحيان أخرى، لذا فالمحاجج الحق يعرف متى يستعمل الحجج العاطفية ومتى لا يستعملها، ويعرف متى تخدم حججه ومتى لا تخدمها.

وحتى يتم الإقناع لابد من ملاسة العاطفة كما ملاسة العقل لأن العقل والعاطفة «في المجال الخطابي على علاقة تامة ومتوسطة، لا بل إن تلك العلاقة إنما هي منى شروط قيام الخطاب ومن دواعي وجوده»²، لذا فالمحاجج لابد أن يعتمد في تبليغ خطابه على ملكتين: ملكة العقل التي تعمل على التنظيم والترتيب، وملكة القلب التي تتوفر على العواطف وبها يستطيع أن يستدرج المتلقي عاطفياً، وبهما معاً يضمن التأثير والإقناع.

7.6. المثلث الحجاجي:

ينطلق أصحاب نظرية الحجاج من أن هناك ثلاث عناصر للفعل الكلامي الحجاجي ويسمى المثلث الحجاجي وهذه العناصر هي:

1. رأي الخطيب: وهو رأي أولي قبل أن يتحول إلى حجة.

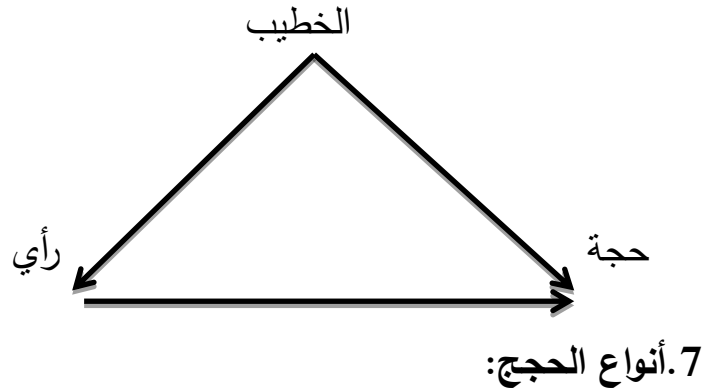
2. الحجة: والتي يدافع عنها الخطيب، وبالتالي يجب التمييز بين ما نفكر فيه كرأي نتبناه، وما نتلفظ به من حجة، فمثلاً مترشح في الانتخابات يتبنى رأياً معيناً وأفكار يؤمن بها، فيصوغ كل هذا في حجج تختلف باختلاف المتلقي، فحججه وهو يخاطب فئة المتعلمين غير حججه وهو يخاطب فئة العمال رغم أن

¹حاتم عبيد، منزلة العواطف في نظريات الحجاج، مجلة عالم الفكر، المركز الأعلى للثقافة، الكويت، م40، ع2، ص258.

²علي الشبعان، الحجاج بين المنوال و المثال، ص60.

له رأي واحد مدعم بحجج متباينة ومختلفة لأن الحجاج يسعى «لوضع الرأي موضعاً ملموساً عن طريق الحجة».¹

3. الخطيب: وهو الذي يدافع عن رأيه بحجج يراها مقنعة، فهو يملك رأي، ويملك حجة.



يميز أصحاب نظرية الحجاج بين عدة حجج أهمها:

1.7. حجة السلطة:

يدعم الخطيب حججه بالاستناد على سلطة داخلية (ما يمليه عقله وما يملكه من أفكار، فيستفيد من هذه الخلفية المعرفية والتراكمية العليمة ليصنع منها حجة)، أو سلطة خارجية (ما تمليه عليه الجماعة التي ينتمي إليها).

2.7. حجة التجربة:

يورد المتكلم (الخطيب) حجج مجربة كأن يقول: «أنا بنفسني خضعت لهذا»²

¹ فيليب بروتون، الحجاج في التواصل، تر: محمد مشبال وعبد الواحد التهامي العلمي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2013، ص37.

² المرجع نفسه، ص87.

3.7. حجة الكفاية:

يأتي الخطيب بآراء أناس أكفاء في المجال الذي يحتاج فيه، فيعتمد الناقد الأدبي مثلاً على حجج نقاد أكفاء في مجال النقد، ويعتمد المترشح في الانتخابات على آراء رجال الدولة الثقة في مجال السياسة لبناء حججه، وهكذا دواليك.

4.7. حجة الشهادة:

يعتمد الخطيب على شاهد عيان للحدث اليومي في إيراد حججه حتى يكون تأثيره أكبر على متلقيه، والفرق بين الشهادة والتجربة أن الأولى آنية والثانية تتضمن مدة قريبة أو بعيدة، وكلاهما «يحيل إلى ممارسة ملموسة»¹، أي أنهما ضمن الحجج الواقعية الملموسة في المجتمع.

5.7. حجة الاشتراك:

يستدعي المحاجج «افتراضات مشتركة خاصة في كل الحالات التي يوجد فيها مسبقاً اشتراك واضح في التفكير والفعل بين الخطيب والمتلقي»²، وتتميز الحجج المشتركة في الآراء المشتركة والقيم والمبادئ والمواقف المشتركة، أي أن الخطيب ينطلق من الأرض الثابتة التي لا يختلف فيها مع متلقيه، فيستند بذلك على الرأي المشترك المقبول جماعياً، أي الثقافة الشعبية المشتركة، فكثيراً ما يعود الخطيب إلى الأمثال الشعبية المعروفة والحكم السائرة بين الناس، حتى تكون حججه أكثر إقناعاً وتأثيراً، كالشباب الشيعي العراقي الذي حاجج دخول أميركا العراق من أجل تحريرهم بقوله: كالرجل الذي أتى بقط ليخرج فأراً من داره

¹ المرجع السابق، ص 87.

² المرجع نفسه، ص 91.

فأصبحت مشكلته إخراج القطط «فاستدعاء القيم يشكل في حد ذاته حجة»¹، فيلجأ المحاجج إلى المرغوب لدى الجميع والمرفوض والمذموم لدى الجميع.

6.7. حجج التأطير وإعادة تنظيم العالم:

وتنقسم هذه الحجج إلى خمسة أصناف:

1. حجج التعريف.

2. حجج التقديم.

3. حجج الوصل.

4. حجج الفصل.

5. حجج شبه منطقية.

1.6.7. حجة التعريف:

يقدم الخطيب تعريفا للموضوع الذي يحتاج فيه، وهو غير التعريف الاصطلاحي، لأنه يأتي بتعريف يخدم رأيه وبالتالي يخدم حجته، فيقول مثلا وهو يدعو للقتال: «ما هو القتال»²، ثم يجيب عن السؤال: «القتال يعني المواجهة»³، وهنا يضع حجة «باقترح تعريف موضوعي لظاهرة ما»، والتعريف في هذه الحالة لا يرد كوسيلة لإيصال المعرفة، وإنما يرد كوسيلة لبناء الحجة و«بناء للواقع قصد المحاجبة»⁴، أي يستخدم التعريف من أجل المحاجبة لا

¹ المرجع السابق، ص 91.

² المرجع نفسه، ص 101.

³ المرجع نفسه، ص 102.

⁴ المرجع نفسه، ص 102.

من أجل المعرفة، فمثلاً محامي يقف دفاعاً عن وكيله في المحكمة، نجده يعرف القضايا تعريفاً يخدم رأيه وبالتالي يصنع من التعريف حجة، فيعرف المصلحة الوطنية تعريفاً يقدم من خلاله حجته قائلاً: «أنا أعتقد أن المصلحة الوطنية تتمثل أولاً في مطالبة العدالة بتحديد من يحكمنا»¹، ومنه نستشف أن التعريف الحجاجي تعريف تطويحي مرن ومتغير يختلف من محاجج لآخر حتى يخدم الحجة المراد إقناعها للمتلقي.

2.6.7. حجة التقديم:

وهي الموازنة بين شيئين و«تطوير في المفاهيم المستعملة»²، وقد يأتي التقديم على شكل التشبيه، أو تقديم اسم جديد للشيء مثل: «أنتم لم تظهروا الشجاعة ولكن أظهروا التهور، لأن الشجاعة تركز على التهور... والتهور مجابهة الأخطار بتقوية الألم»³

3.6.7. حجة التفخيم:

ويقصد بها تضخيم الشيء سواء كان جيداً بكثرة استحسانه، أو كان سيئاً بكثرة استهجانته وتهويل الأمر، يقول (بيرلمان) «من الضروري الإلحاح طويلاً على بعض العناصر... وذلك بتمديد الانتباه الذي توليه إليها، فنكتشف منى حضورها في وعي المتلقي»⁴، أي أن الإلحاح والتكرار على الأشياء المهمة يضمن رسوخها في وعي المتلقي، ويكون الإلحاح عن طريق التكرار، وذلك بتكرار المفردات أو تكرار المعاني بمفردات مختلفة، أو عن طريق التكرار بقلب

¹ المرجع السابق، ص 102.

² المرجع نفسه، ص 105.

³ المرجع نفسه، ص 105.

⁴ المرجع نفسه، ص 109.

العبارة كقول باسكال (pascal): «لا نستطيع أن نجعل من العدل قوة لقد جعلنا من القوة عدلاً»¹، فهذا التلاعب بالألفاظ يسعى لأن تكون الحجج أكثر تأثيراً وإقناعاً.

4.6.7. حجة الوصل:

وذلك بالربط بين عدة كلمات والمزج بين معاني مختلفة، كقول علي بن أبي طالب في إحدى خطبه: «يا أشباه الرجال وعقول ربات الحبال»، فقد ربط بين الرجال الجبناء في الحرب والنساء اللاتي يختبئن خوفاً وضعفاً.

5.6.7. حجة الفصل:

وهي حجة نصل إليها من خلال الجمع بين المعاني المتفرقة «فتيح حجة الفصل تكسير وحدة المفاهيم»²

6.6.7. الحجة المنطقية والحجة شبه المنطقية:

ونستلهم الحجج المنطقية وشبه المنطقية من الكون، فالحجاج خطاب ينشط في وجود مخاطب بين طرفين مُحَاوِر ومُحَاوَر لذلك يعرف الحجاج بأنه: «فاعلية لفظية واجتماعية للعقل»³ لذلك نستطيع تقسيم الحجاج إلى:

1- حجاج حوارِي: ويكون فيه تفاعل بين المتكلم والمخاطب، فهو حوار افتراضي غير حقيقي Dialogal.

2- حجاج تحاوِرِي: وهو حوار حقيقي بين طرفي الحوار Dialogiq.

¹ المرجع السابق، ص 109.

² المرجع نفسه، ص 115.

³ علي الشبعان، الحجاج بين المنوال والمثال، ص 18.

7.7. حجج التماثل:

وذلك بإعطاء مثال لتبرير الحجة ومنحها مصداقية لدى المتلقي، ولتمثيل أدوات كالاستعارة والتشبيه -الصور البيانية التي تخدم الإقناع-، ويجب التمييز بين الاستعارة الأدبية والحجاج بالاستعارة، فالأولى جمالية غايتها فنية أدبية والثانية غايتها إعطاء الحجة، وللتماثل «قدرة على إثارة الخيال، وإحداث تأثير المفاجأة، فهو الوسيلة التي تحمل على الإقناع»¹، وبالتالي التماثل يستلزم رصيذا ثقافيا وتراكما معرفيا مشتركا بين المتكلم والمتلقي، حتى يكون التماثل واضحا لدى المخاطب ولا يكون الخطاب مبهما لديه.

8.7. الحجة بالمثل:

غالبا ما تأخذ صيغة "فلنأخذ مثلاً" أو "مثل" وتختلف الحجة بالتمثيل عن الحجة بالمثل، فالأولى مركبة تعتمد على المجاز (الاستعارة، التشبيه)، فهي تعتمد على المحسنات البلاغية، عكس المثال فهو فوري، يقدم الحجة واضحة حقيقية، فالحجة بالمثل أن يعطي المتكلم أنموذجا يحاجج به، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ﴾ [العنكبوت/ الآية 41]، فالحجة بالمثل بعيدة عن الاستعمالات البلاغية بينما حجة التمثيل «تشمل في إقامة علاقة بين عنصر خارجي المتفق عليه مسبقا، وبين الرأي المقترح»²، أي أنها تقوم على علاقة المشبه بالمشبه به أو علاقة المستعار بالمستعار له، والحجاج بالمثل يجعل التداخل حاصلًا بين موضوعين يسمى الأول "الموضوع" والثاني يسمى "المحمول"، كقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ

¹ فيليب بروتون، الحجاج في التواصل، ص 125، 206.

² المرجع نفسه، ص 137 .

الحمار يحمل أسفارًا ﴿[الجمعة/الآية 62] فالموضوع في الآية هو: اليهود الذين يحملون التوراة ولم يأخذوا بما أنزل الله فيها، المحمول هو: الحمارة الذي يحمل أسفارًا ولا يفقه ما فيها.

وتنقسم الحجة بالمثل **exemple** إلى:

1. **المثال الواقعي:** المسند من الواقع (ماضي، الحاضر).

2. **المثال الخيالي:** يستمد الخطيب من القصص والحكايات والأمثال والأساطير، فيمثل بشخصية من نسج الخيال يستمدّها من الأدب.

ويضيف صابر الحباشة إضافة إلى أنواع الحجج المذكورة:

1. **حجة التبرير:** وأداتها "بما أن".

2. **الحجة الرمزية:** إذ تأتي الحجة على شكل رمز كرمز العدالة، الميزان.

3. **حجة الاتجاه:** غرضها التحذير، كالتحذير من انتشار شيء ما.

4. **حجة الاستشهاد:** كالاستشهاد بالقرآن الكريم الذي يعتبر حجة أقوى من أية حجة أخرى، كذلك الاستشهاد بالكتب المقدسة عند غير المسلمين، إذ يعتبر النص المقدس حجة غير قابلة للدحض.

5. حجة التواحدية:

«تبنى على علاقة الشخص بعمله»¹ ومثال ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»² فالحجة هنا مرتبطة بعمل الشخص.

8. أهم تيارات نظرية الحجاج:

اختلفت تيارات نظرية الحجاج باختلاف مجالات الدراسة لدى المنظرين لهذه النظرية بين فلاسفة ولغويين وحتى رجال القانون، لذلك نجد تنوعاً في آليات الحجاج وتقنياته، كل فريق له طريقة خاصة به في تحليل الخطاب تحليلاً حجاجياً، فبعضهم يربط آليات الحجاج بالأدوات اللغوية المتوفرة في النص، وبعضهم الآخر يربط الحجاج بالمنطق، لذا ظهرت نظريات الحجاج وهي:

1.8. تيار الحجاج المنطقي:

نظّر له كل من (شايم بيرلمان) وزميلة له: لوسي (أولبريخت تيتيكا)، حيث انطلقا من مبدأ ثابت لديهما مفاده أن «البلاغة حجاجية»³، لأن الصور البيانية والمحسنات البديعية وكل المزيّنات الجمالية في النص هدفها التأثير والإقناع ولا تهدف إلى «الاستمتاع الجمالي غير العائى بالتأثير وتعديل الرأي والسلوك»⁴، فالبلاغة عندهما مجالها الحجاج والإقناع بعيدة عن التتميق والزخرف اللفظي وأن ورد في النص فوظيفته التأثير ثم الإقناع وليس من أجل الجمال الفني فقط.

¹ صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مدخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008 م، ص 48.

المرجع نفسه، ص48.

² المرجع نفسه، ص48.

³ محمد الولي، مدخل إلى الحجاج أفلاطون أرسطو و شايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، مج 40، ع2، ص33.

⁴ المرجع نفسه، ص33.

كما يركز (بيرلمان) على الجدل القانوني (القضائي) باعتباره رجل قانون، فالقضاء عنده هو مجال للصراعات والجدلية المتناقضة ومجال لحل تلك الصراعات، لذلك نجده يربط بين الخطاب القضائي والبلاغة الحجاجية.

كما يولي (بيرلمان) اهتمامًا كبيرًا بالمتلقي (المستمع)، لأن الخطاب موجه إليه بغرض إقناعه، ولا يهم إن كان المتلقي فردًا أو جماعة أو كان حقيقيًا أو افتراضيًا، حاضرًا أو غائبًا المهم إقناعه بحجج منطقية يتقبلها، لذا ما يميز بيرلمان هو ربطه للحجاج بالمنطق، وفي ذلك يقول معرفًا نظرية الحجاج «إنَّ نظرية الحجاج كما حددناها، تجعلنا نفكر على التو، من حيث موضوعها، في البلاغة القديمة، هذه البلاغة التي سأعالجها، مع ذلك، من خلال انشغالات عالم المنطق»¹، لذا كانت البلاغة القديمة هي الأرضية التي انطلق منها بيرلمان لبناء بلاغة جديدة مبنية على المنطق الحجاجي، لأن غاية الحجاج هو أن يجعل المتلقي يذعن ويسلم بما عرض عليه من حجج، لذلك يعرف بيرلمان الحجاج بقوله: «موضوع نظرية الحجاج هو دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد من درجة ذلك التسليم»²، ويرمي بيرلمان بقوله تقنيات الخطاب أي التقنيات المنطقية التي تؤثر في الأذهان ومن ثم التسليم بها أو تزيد في درجة ذلك التيم والتصديق بها.

ويرى بيرلمان وتيتيكا أن المحاجج لابد أن ينطلق من الوقائع وهي في نظرهما غير قابلة للرفض والدحض، ويقصد بالوقائع «ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس»³، فالوقائع هي المنطلقات والبديهيات الأولى

¹ محمد العمري، البلاغة و الحجاج أو بلاغة الحجاج، مجلة عالم الفكر، مج40، ع4، ص264.

² حمادي صمود، الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص299.

³ المرجع نفسه، ص308.

التي يشترك فيها الناس جميعاً والتي ينطلق منها المحاجج في بناء حججه لأن الجمهور يسلم بها، وكذلك لابد للحجاج أن يدور حول مدار القيم **les valeurs** المشتركة بين جميع الناس، وتنقسم القيم إلى: قيم مجردة كالعدل والحق والحرية، وقيم محسوسة كالوطن والإنسان والحيوان.

ومجمل القول أن ما يميز هذا التيار هو المزج بين الحجاج والمنطق والانتقال من بلاغة قديمة أخلاقية جمالية إلى بلاغة جديدة حاجية منطقية.

2.8. تيار الحجاج اللغوي/اللساني:

وضع أسس هذا التيار اللغوي (أزوالد ديكرود **Ducrot** O.) ومن أهم ما نادى به أن اللغة وظيفة أساسية جوهرية هي الوظيفة الحجاجية الإقناعية، وهذه الوظيفة تتجلى في سمات اللغة: الصوتية، الصرفية، التركيبية، الدلالية، وعليه اهتم ديكرود بالأدوات اللغوية التي يحتويها الخطاب والبحث عن مكامن الحجاج فيه من خلال هذه الأدوات اللغوية، لذلك سميت نظريته "نظرية الحجاج اللغوية"، لأن الحجاج عنده وعند أصحاب التيار الحجاج اللغوي «يُعَالَج في إطار لساني محض»¹، فقد انطلقوا من الفلسفة اللسانية واهتموا بألفاظها وقدرتها الحجاجية في النص، لذلك كانت أراء ديكرود مرتبطة بالأدوات اللغوية كالروابط اللغوية من حروف العطف والربط... التي يسميها روابطاً حجاجية، وإذا كان بيرلمان قد انطلق من فلسفة "أرسطو" في البلاغة القديمة لبناء آراءه في نظرية الحجاج فإن "ديكرود" انطلق من فلسفة اللغة العادية وتحديداً أراء "أوستين وسيرل"، ليضع نظريته في الحجاج سنة 1973 وهي «نظرية لغوية تهتم بالوسائل اللغوية»² لتثبت أن اللغة وظيفة حجاجية إقناعية، لأنه ينطلق من

¹ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص21.

² صابر لحباشة، التداولية و الحجاج، ص50.

الفكرة العامة التي تقول «أنا نتكلم بغرض التأثير»¹، وهذا ما يتفق فيه ديكر و بيرلمان وكل منظري نظرية الحجاج والمختلف فيه هو آليات هذا التأثير والإقناع فالأول يراها آليات لغوية والثاني يرى أنها آليات منطقية.

ويثبت ديكر من خلال كتاب له (مشارك مع زميله: أنسكومبر) أن «اللغة مشبعة بالقيم الحجاجية»²، أي أن الحجاج يكمن في اللغة لذلك يفرق بين معنى الجملة في سياقها وفي خارج السياق، وقد قدم إشارات هامة في أن الجملة تأخذ دلالتها الحجاجية أثناء التلفظ بها.

3.8. تيار الحجاج الخطابي:

نظّر له كل من (روث أموسي Rwh amossy* - ميشيل مايير Michal Mayer-فايركلوث fair clough)، ويهدف هذا التيار إلى استنباط واستخراج مختلف الآليات الحجاجية التي يحتويها أي خطاب، فهم يؤمنون أن كل خطاب يحوي على آليات حجاجية ويجب استعراضها بغض النظر أن كان الخطاب سياسياً أو فلسفياً أو أدبياً أو إشهارياً أو قضائياً المهم استعراض مختلف الاستراتيجيات الحجاجية التي تتوفر عليها هذا الخطاب، فهو في نظرهم مشبع بهذه الاستراتيجيات الحجاجية حتى لو لم يهدف إلى الحجاج أصلاً، لأنهم ينطلقون من تعريف (بنفست Benveniste) للخطاب، وهو عنده «كل تلفظ يفترض متحدثاً ومستمعاً، يكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني

¹ المرجع السابق، ص 50.

² رشيد الراضي، مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكر، مجلة عالم الفكر، م 40، ع 2، ص 195.

* روث أموسي، باحثة إسرائيلية، نظرت للحجاج الخطابي من خلال مجموعة من الكتب أهمها: الحجاج في الخطاب Irgumentation dans le discours.

بشكل من الأشكال»¹، فكل خطاب يحوي طرفين: المرسل والمرسل إليه، وغاية الأول التأثير في الثاني وهي القاعدة التي انطلق منها أصحاب الحجاج الخطابي لذا فالخطاب عندهم يقوم على ثلاثة مبادئ:

1- مبدأ الغيرية: كل خطاب موجه للغير.

2- مبدأ التأثير: غاية الخطاب التأثير في الغير.

3- مبدأ السيطرة:

فالمتكلم له سلطة اللغة، وهذه الأخيرة مصدرها السلطة، والمتكلم الذي يملك سلطة اللغة له سيطرة على المتلقي من حيث الأمر والنهي، لذلك يتسع مجال الحجاج عندهم كما عند بيرلمان ليشمل جميع أنواع الخطابات، لأن كل خطاب يحمل بالضرورة إيديولوجيا صاحبه التي قد تتعارض وتتضارب مع إيديولوجيات أخرى معادية لها، كما أن الخطاب الواحد يحمل في ثناياه تعدداً صوتياً وتضارباً فكرياً إيديولوجياً، وهو ما تحدث عنه (باختين فولوشينوف Bakhtine Volochinov) في مبدأ الحوارية «إنَّ أهم مظهر من مظاهر التلفظ، أو على الأقل المظهر الأكثر إهمالاً هو حواريته ighogism»²، ويقوم الحجاج على مبدأ الحوار، أي وجود طرفين يسعى كل واحد منهما إقناع صاحبه بالحجة، لأن الحوار «خطاب من أجل الإقناع بقضية أو فعل»³، فالحوار خطاب هدفه الإقناع والحجاج يكون عن طريق الحوار.

¹ محمد الباردي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004، ص1.

² ترفيتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحوارية، تر: فخري صالح، دار الفارس للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1996، ص16.

³ محمد العمري، دائرة الحوار و مزالق العنف (كشف أساليب الإغاثات و المغالطة مساهمة في تخليق الخطاب)، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002، ص9.

ومجمل القول أن "روث أموسي" وأصحاب الحجاج الخطابي يرون أن كل خطاب هو بالضرورة حجاجي لأن أي خطاب و مهما كان نوعه -حتى لو كان إشهارياً أو مجرد صورة- هدفه التأثير في الآخر ومن ثم إقناعه أو زيادة إقناعه إن كان مقتنعاً مسبقاً، لذا يميزون بين الهدف الحجاجي والبعد الحجاجي فالأول مرتبط بالإشهار والخطاب الانتخابي فهدهما جذب المتلقي، أما الثاني-البعد الحجاجي- فهده تغيير وجهة نظر المتلقي بالحجة، ونجده في جميع الخطابات: الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية التي تحوي حججاً غير مباشرة ومضمرة معتمدة في ذلك على الانزياح.

ونصل في الأخير إلى أن الحجاج قد عُرف منذ القدم بتسميات مختلفة سواء في الساحة الغربية حيث عرف مع اليونان بفن الخطابة أو فن الإقناع "البلاغة القديمة"، وحديثاً مع "بيرلمان وأزوالديكرو" وغيرهما كثير حيث عرف بالبلاغة الجديدة "نظرية الحجاج"، أما عربياً فيمكن الحجاج بعد القرآن الكريم الذي حاجج أهل الكفر والضلالة في تلك الحرب الكلامية التي نشأت بين الفرق الإسلامية (الجدل وعلم الكلام).

كما ظهرت عدة تيارات حجاجية، وظهرت عدة آراء في طريقة تحليل الخطاب والبحث عن مكامن الحجاج فيه، فتضاربت بذلك الآليات وتنوعت الاستراتيجيات واختلفت أدوات التحليل باختلاف مجالات البحث لدى الباحثين، فـ**بيرلمان** بحكم أنه رجل قانون فقد ربط الحجاج بالمنطق منطلقاً من الفلسفة اليونانية، و**ديكرو** باعتباره عالم نفساني وباحث لغوي فقد ربط الحجاج بالأدوات اللغوية التي يحتويها الخطاب دون إهمال المرجعية النفسية التي جعلت صاحب الخطاب يختار هذه الأدوات دون غيرها، منطلقاً من فلسفة اللغة العادية وآراء **أوستين** و**سيرل** في ذلك، أما أصحاب الحجاج الخطابي وعلى رأسهم "روث

أموسي" فقد ربطوا الحجاج بالخطاب لأن هذا الأخير جاء من أجل الإقناع فهو مشبع بالحجاج.

وكثيراً ما نربط الخطابة بالحجاج فهي أكثر الأجناس الأدبية اتصالاً به، وقد اخترنا خطابة أبي بكر الصديق "رضي الله عنه" كنموذج مخصص لدراستنا، إذ أن الخطابة في العصر الإسلامي نهضت نهوضاً عظيماً ويعود ذلك إلى أن الإسلام اتخذ منها أداة للدعوة الإسلامية، فجد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده يدعون إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويعتبر الصديق رضي الله عنه «خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل، كما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية»¹، وقد أثرت عن الصديق خطباً كثيرة ذكرتها كتب التاريخ والنقد والأدب وهي خطب «تدل دلالة واضحة على شدة شكيمة في الدين ويقظته وصدق حسه»²، ولا عجب في ذلك فهو رجل شهد عليه بالفصاحة والبيان وهو أحب رفيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وألصق أصحابه به، لذا كان تأثره بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول تأثراً بليغاً يتضح وضوحاً جلياً في خطبه ووصاياهم، وعليه سنحاول دراسة خطب الصديق رضي الله عنه دراسة حجاجية والكشف عن الطرائق التي يتبعها في ترتيب حججه ليؤثر في المتلقي ومن ثم إقناعه.

¹ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط20، ص122.

² المرجع نفسه، ص122.



الفصل

الثاني

1. خطبة الصديق يوم وفاة الرسول صل الله عليه وسلم.

1.1. السلاسل الحجاجية:

خرج الصديق "رضي الله عنه" إلى الناس يوم وفاة الرسول صل الله عليه وسلم، وهم في شديد غمراهم، وعظيم سكراتهم، فخطب خطبة يقول فيها بعد أن نطق بالشهادتين وحمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»¹، فالخطيب بدأ كلامه بحجج منطقية، لأن الحدث العظيم الذي كان وقعه شديدًا في نفوس الناس يستدعي الاحتكام إلى المنطق، والرجوع إلى الثابت الأولى التي لا تزول، والعودة إلى سنة الله في خلقه، فقد بدأ بحجة ثم حجة ثم نتيجة ليصل إلى إقناع المتلقي (هم الصحابة رضوان الله عليهم) بموت الرسول صل الله عليه وسلم، والاستسلام لقضاء الله وقدره، فجاءت حججه كالاتي:

• من كان يعبد محمدًا

فإنَّ محمدًا قد مات

(حجة 1) ← (نتيجة 1)

• من كان يعبد الله

فإنَّ الله حي لا يموت

(حجة 2) ← (نتيجة 2)

وأراد الخطيب من هذا الكلام أن كل شيء فان، ويبقى وجه الله ذي الجلالة والإكرام، ثم يتابع الخطيب إقناع متلقيه، بأن الرسول صل الله عليه وسلم قد مات، وأن الدين الإسلامي ودين التوحيد لا ينتهي بموت الرسول صل الله عليه وسلم ماداموا يؤمنون بالله، والله حي لا يموت، كما أن الله قد خير النبي بما عنده وما عندكم، فاختار عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى، ليصل الخطيب إلى نتيجة هي: عدم إنكار ما حصل والأخذ به، فالله عز وجل إذا

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام)، ج1، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د/ط، ص180.

أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، والمؤمن الحق يؤمن بذلك ولا يستطيع إنكاره، يقول الصديق رضي الله عنه: «وإن الله قد تقدم إليكم في أمره، فلا تدعوه جزعاً، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلف فيكم كتابه، وسنة نبيه، فمن أخذ بها عرف، ومن فرق بينهما أنكر»¹، أي أن الرسول صل الله عليه وسلم قد مات، لكن ترك فيكم ما إن تمسكتم به لن تصلوا، كتاب الله وسنة نبيه، لينهي الصديق كلامه بنتيجة يدعمها بآية من القرآن الكريم، وهو بمثابة حجة دامغة غير قابلة للدحض (حجة الاستشهاد)، إذ استحضر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة النساء، الآية 135]، ويقول في النتيجة: «لا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنكم عن دينكم، فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم»²، فكانت النتيجة تحذيره من وسوسات الشيطان وإغوائاته في مثل هذا الموقف، حتى لا يفتنهم عن دينهم، فتغشى الأبصار عن رؤية طريق الحق والهداية، وتعمى القلوب، فتكون النتيجة الكفر بعد الإيمان.

وقد جاءت الحجج مرتبة ترتيباً تصاعدياً في سلم حجاجي يراعي فيه الخطيب شدة وقع الحدث في نفسية المسلمين، فقد كانت النفوس في شدة خوفها وجزعها وحيرتها، فراح الصديق "رضي الله عنه" يخاطب العقول بما هو كائن حتى تهدأ النفوس، فجاءت الحجج مرتبة كالاتي:

- نتيجة: لا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنكم عن دينكم عن دينكم، فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.
- حجة/4: خلف فيكم كتابه، وسنة نبيه.
- حجة/3: إن الله اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم.
- حجة/2: من كان الله فإن الله حي لا يموت.
- حجة/1: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.

¹المصدر السابق، ص180.

²المصدر نفسه، ص180.

2.1. الروابط الحجاجية:

{ 59 }

للأحداث، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد اختار ما عند الله وقُبِضَ إلى ثوابه، وخَلَفَ فيكم كتابه، وسنته، فالخطيب يعتمد على السرد في عرض حججه، أي أن الحجج عبارة عن مجموعة من الأحداث الحقيقية التي مرَّ بها الرسول صل الله عليه وسلم حقيقة، وقد منح الخطيب للمتلقي من خلال هذا السرد الحقيقي للحجج فرصة إدراك الحدث التاريخي ومن ثم الاقتناع به كواقع لا يستطيع تغييره، وهدف الخطيب هو الوصول إلى إقناع الصحابة بموت الرسول صل الله عليه وسلم، ولا جدوى من إنكار ذلك.

كما أن الخطيب في ربطه للنتائج استخدم الرابط الحجاجي (الواو) تارة و(الفاء) تارة أخرى، في قوله: «ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم، فعاجلوه وتعجزونه»¹، فجاءت النتائج معطوفة بحرف الواو ثم الفاء الذي جاء متصلاً بالفعل المضارع (فعاجلوه، فيلحق بكم) من أجل الأمر والنهي، فقد جاءت النتيجة عبارة عن تحذير الخطيب من وسوسات الشيطان والنهي من إغوائاته التي ستمكن من النفوس الضعيفة، وقد عمل الرابط الحجاجي (الفاء) مع الفعل المضارع على إظهار شدة حرص الصديق رضي الله عنه على إيصال الحجج التي تحمل الحقائق لذهن المتلقي، وشدة حرصه على إقناع الصحابة بموت الرسول صل الله عليه وسلم، وأن الدين الإسلامي سيبقى ولو كره المشركون، وأنَّ محمدًا رسول قد خلت من قبله الرسل، ويجب ألاَّ ينقلبوا على أعقابهم ويعودوا إلى كفرهم، ومن يفعل ذلك يلقى جهنم وبئس المصير.

3.1. العوامل الحجاجية:

الحجاج بالتوكيد:

لجأ الخطيب إلى أسلوب التوكيد من أجل إثبات حججه، وذلك من خلال حضور أداة التوكيد إنَّ في قوله: «إِنَّ محمدًا قد مات... وإنَّ الله قد اختار»²، وقد استخدمها الخطيب ليؤكد حججه التي يضمنها حقائق مخالفة لما يعتقده المتلقي.

¹المصدر السابق، ص180.

²المصدر نفسه، ص180.

ونجد كذلك من أدوات التوكيد "قد" التي اتصلت بالفعل الماضي لتفيد التحقيق، أي أن "قد" المتصلة بالفعل الماضي أفادت تحقيق فعل الموت ولا مجال للشك أو الإنكار في قوله (قد مات، قد اختار)، وقد اعتمدها الخطيب ليثبت الأحكام المتضمنة في الحجج المقدمة، إذ أكد أن الرسول صل الله عليه وسلم مات وأنه اختار ما عند الله (اختار الرفيق الأعلى).

إضافة إلى "قد" التي أفادت التوكيد لاتصالها بالفعل الماضي، نجد نون التوكيد الثقيلة التي اتصلت بالفعل المضارع في قوله: «ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتننكم عن دينكم»¹، فقد جاءت نون التوكيد متصلة بالفعل المضارع (يشغل، يفتن)، ليؤكد الخطيب انشغال الشيطان بموت الرسول صل الله عليه وسلم، وسيقوم على فتنة العباد ليصدهم عن دينهم، لذلك بدى الصديق رضي الله عنه حريصاً على تنبيه الصحابة وتحذيرهم من الفتنة.

ولجوء الخطيب إلى أدوات التوكيد (إن- قد والفعل الماضي- نون التوكيد والفعل المضارع) لأنه على علم بأن المتلقي رافض لحقيقة موت رسول الله صل الله عليه وسلم وغير مقتنع بها، لذلك جاءت الحجج والنتائج مؤكدة بأدوات التوكيد، ولا بد من استخدام مثل هذه الأدوات حتى لا يجعل للمتلقي (وهم الصحابة الرافضين لحقيقة موت الرسول صل الله عليه وسلم والذين لا يستطيعون تصديق ذلك وعلى رأسهم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعاً) مجالاً للشك، فيسلموا بموته، ويؤكد الخطيب أن الدين لا ينتهي بموت النبي محمد صل الله عليه وسلم، فهو موجود بوجود الله الحي الذي لا يموت.

2. خطبة يوم السقيفة:

2.1. السلام الحجاجية:

يعمد الصديق رضي الله عنه في خطبه على التدرج في عرض حججه، فنجد في خطبه مجموعة من الحجج التي تبنى على سلام حجاجية التي تتأسس على التدرج في توجيه الحجج، فالخطيب يرتب الحجج من حيث القوة والضعف وذلك بحسب السياق الذي هو فيه، فيبدأ بحجج قوية ثم حجج أكثر قوة ثم الأكثر منها وهكذا دواليك.

¹المصدر السابق، ص180.

ولو عدنا لخطبته يوم السقيفة التي يقول فيها: «أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله صل الله عليه وسلم»¹، فالخطيب بدأ بالتحدث عن البديهيات المعروفة لدى الجميع جاعلاً منها حجة أولية، إذ بدأ كلامه بتذكير المتلقي بالمكانة الاجتماعية والسياسية، خصوصاً وأنهم من قبيلة قريش، القبيلة التي ولد ونشأ فيها الرسول صل الله عليه وسلم، وأراد من هذه الحجة إثبات قرابة المهاجرين في الرحم والنسب من رسول الله صل الله عليه وسلم، ومن ذاك فهم الأولون في الدخول إلى الإسلام والسباقون إلى اعتناقه، وفيهم نزل القرآن الكريم، فالصديق "رضي الله عنه" يستدرج المتلقي (الأنصار من أهل المدينة) إلى الاقتناع بأحقية المهاجرين في الخلافة بعد موت الرسول صل الله عليه وسلم، لذلك اعتمد على مجموعة من الحجج يرتبها ترتيباً يضمن فيه استمالة متلقيه والاقتناع بالحجج المعروضة عليه، فنجد بعد أن تحدث عن مكانة المهاجرين من الرسول صل الله عليه وسلم ومن الدين الإسلامي، انتقل إلى إيراد حجة دامغة غير قابلة للدحض ليثبت حجته الأولى، وهي استشهاده بقول الله تعالى وهو يقدم المهاجرين على الأنصار، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة التوبة، الآية 100]، والخطيب يورد هذه الآية التي تحدث فيها الله عز وجل عن السابقين إلى الإسلام، فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار، ليثبت ما انطلق منه من حجج، فالصديق رضي الله عنه أورد من الأدلة المادية والمعنوية ما يثبت رأيه في استحقاق المهاجرين الخلافة، ثم يقول: «نحن المهاجرون، وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، شركاؤنا في الفي، وأنصارنا على العدو»²، وهذه حجة ثالثة، فبعد أن تحدث الخطيب عن مميزات المهاجرين المادية والمعنوية معتمداً في ذلك على الفل بين الفئتين، قام بجمعهم مرة أخرى، فهم إخوان في الدين، أنصار على العدو، شركاء في الغنيمة، ومن هذه الحجج

¹المصدر السابق، ص175.²المصدر نفسه، ص175.

يخلص الخطيب إلى نتيجة مفادها أن المهاجرين هم الأمراء والأنصار هم الوزراء يقول: «فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء»¹، فبين من خلال مكانة كل فئة أن المهاجرين هم الخلفاء بعد موت الرسول صل الله عليه وسلم، والأنصار هم الوزراء الذين لا تفوتهم مشورة ولا تقضى حاجة إلا بهم، وجاءت الحجج مرتبة على سلم حججي ممثلاً في الآتي:

↑ -نتيجة/المهاجرون هم الأمراء والأنصار هم الوزراء.

-حجة3/ الأنصار إخواننا في الدين، شركاؤنا في الفيء (الغنيمة) وأنصارنا على العدو.

-حجة2/ قوله تعالى: ﴿السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾.

-حجة6/ أمسهم رحماً برسول الله صل الله عليه وسلم.

-حجة5/ أكثر الناس ولادة في العرب

-حجة4/ أحسنهم وجوهاً.حجة1/:حجة كبرى تحتوي على

حجج جزئية.

-حجة3/ أوسطهم داراً.

-حجة2/ أكرمهم أحساباً.

-حجة1/ نحن المهاجرون: أول الناس إسلاماً.

2.2. الروابط الحجاجية:

يعد الربط من القرائن اللفظية التي تعمل على الاتصال المترابط بين أجزاء النص (ربط الجمل أو الكلمات بعضها ببعض)، فالروابط لها دور هام في اتساق أفكار النص وانسجام معانيه، وقد قسمت الروابط الحجاجية إلى الروابط التي تربط بين الحجج فيما بينها، والروابط التي تربط الحجج بالنتائج.

ومن الروابط التي تربط الحجج فيما بينها نجد: (الواو، ثم، حتى، أو، لكن، بل، إلى أن وواو الحال، أدوات نصب الفعل المضارع...).

¹المصدر السابق، ص175.

ونجد في خطبة الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة الرابط الحجاجي "الواو" الذي ربط بين حجج الخطبة، ويتضح ذلك في قوله: «وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوهاً...»¹، فالرابط الحجاجي هنا ربط بين مجموعة من الحجج حتى تخدم نتيجة واحدة، وهي بيان أحقية المهاجرين بالخلافة، وقد قامت واو العطف بوصفها الرابط الحجاجي الذي يقوم بترتيب الحجج بطريقة وصل بعضها ببعض على وضع الحجج بشكل أفقي مرتبة ترتيباً تصاعدياً، وتقوية الحجة الأولى بالثانية والثالثة بالثالثة وهكذا دواليك.

وجاءت الحجج عبارة عن جمل اسمية على صيغة اسم تفضيل معطوفة بعضها على بعض بحرف العطف "الواو" (أكرمهم وأوسطهم وأكثرهم وأمسهم)، وبالتالي جاءت الحجج متسقة ومتصلة ببعضها لتشكل حجة كبرى تثبت نتيجة واحدة، وتصل إلى إقناع المتلقي بجدواها فلا تدع له مجال للشك في استحقاق المهاجرين الخلافة، فالمهاجرون هم الخلفاء والأنصار وزراء.

وحرف العطف "الواو" عمل على تقوية الحجة الأولى بالتالي تليها إلى أن تصل إلى الحجة الأخيرة، فيستخدم الخطيب الرابط الحجاجي "الفاء" للربط بينها وبين النتائج، في قوله: «فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار... فنحن الأمراء وأنتم الوزراء... فالأ تنفسوا إخوانكم ما منحهم الله من فضله»²، والمعروف عن حرف "الفاء" أنه يفيد الترتيب والتعقيب، وهو من الروابط التي تعمل على تحقيق الانسجام الحجاجي وترتيب النتائج، وقيل عنه أنه: «من الحروف التي تشترك في الإعراب والحكم، ومعناها التعقيب فإذا قلت: قام زيد فعمر، دلت على قيام عمرو وبعده زيد بلا مهلة»³.

¹المصدر السابق ص175.

²المصدر نفسه، ص176، 175.

³الحسين بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص61.

وفي الخطبة جاءت الفاء رابطاً بين جملتين: حجة ونتيجة، و«إذا عطفت جملة أوصفة دلت على السببية نحو فوكزه موسى ففضى عليه»¹، أي تجعل حملة سبب جملة، فالوكرز سبب القتل، والخطيب عطف جملتين بالرباط الحجاجي (الفاء): الجملة الأولى كانت الآية الكريمة، قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، وفي الجملة الثانية قال: «فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار»²، وذلك لجعل الآية الكريمة وما سبقها من جمل وهي بمثابة حجج سبباً للجملة الثانية و هي بمثابة نتيجة، أي أن الله ذكر المهاجرين ثم الأنصار، إضافة إلى أن المهاجرين هم أول الناس إسلاماً، و أقربهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، فهذه أسباب كافية لتكون الخلافة للمهاجرين، ويقول أيضاً رابطاً جملتين جاعلاً الأولى سبباً للثانية بالرباط الحجاجي (الفاء): «لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفوسوا على إخوانكم ما منحه الله من فضله»³، أي أن العرب مدينة لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهو من قريش فلا تنافسوننا وتحسدونا على فضل منحه الله لنا.

يستعمل الخطيب الرابط الحجاجي (الفاء) في أواخر الخطبة لجعل الترتيب تعقيباً، ويجعل النتيجة سببها الحجة، والحجة تسبب النتيجة، أي أن النتيجة: المهاجرون هم الخلفاء، جاءت سبباً للحجة وهي أن الله فضلهم أن بعث إليهم رسولاً منهم، فمحمد صلى الله عليه وسلم من قريش، والمهاجرون هم الأقربون إليه والسَّابِقُونَ إلى اعتناق الإسلام.

3.2. العوامل الحجاجية:

وهي مجموعة من الأدوات والمورفيمات التي تدخل على الخطاب فتزيده حجاجاً، وتساهم مساهمة فعالة في شحنه بشحنات إقناعية تأثيرية حجاجية، وتتوعد هذه العوامل الحجاجية

¹المرجع السابق، ص64.

²أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص175.

³المصدر نفسه، ص176.

بين: أدوات النفي وأدوات التوكيد، وبعض الجمل مثل: ربما، تقريباً، كان، قليلاً، كثيراً، منذ الظرفية، في الأقل.

أولاً: الحجاج بالتوكيد.

يعمد الخطيب إلى تكرار بعض الألفاظ من ذلك نجد تواتر ضميرين: نحن وأنتم، ولفظتين: المهاجرين والأنصار في قوله: «نحن المهاجرون وأنتم الأنصار»¹، وقد تكررت هذه الجملة أكثر من مرة في الخطبة، والهدف من التكرار في الخطاب الحجاجي الذي بين أيدينا هو دفع الشك والظن عن الأنصار وإقناعهم بأحقية المهاجرين بالخلافة، فبواسطة التوكيد استطاع الخطيب توجيه ذهن متلقيه إلى الوجهة التي رسمها وإقناعهم بالحجج التي أدرجها.

ثانياً: الحجاج بالقصر.

استعمل الخطيب في خطبته التي قالها في سقيفة بني ساعدة أسلوب القصر في قوله: «نحن المهجرين وأنتم الأنصار»²، والقصر هنا جاء من خلال تقديم ما حقه التأخير، ليدل المحاجج على أسبقية المهاجرين في الإيمان، فتقديم الجملة الاسمية إشارة إلى أنهم تقدموا عن الأنصار، فهم أولى بالخلافة منهم، وهذا تأكيد حاسم يقطع به شك الرأي المخالف ويدحضه.

3. خطبته بعد البيعة:

3.1. السلام الحجاجية:

تعتبر خطبة الصديق "رضي الله عنه" بعد البيعة، الخطبة الأولى له كخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمير الأمة الإسلامية ورئيسها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي بمثابة الخطبة التي يلقيها الرئيس بعد فوزه في الانتخابات، لذلك كانت خطبته «بمثابة

¹المصدر السابق، ص175.

²المصدر نفسه، ص175.

خطبة العرش التي يلقيها اليوم الملوك رؤساء الحكومات يبنون بها خطبتهم التي يسIRON عليها وسنتهم التي يتبعونها ثم لا يفعلون ولكن أبا بكر رضي الله عنه قال وفعل»¹، ففي هذه الخطبة التي بدأ بها الصديق رضي الله عنه مسيرته كخليفة، بيّن منهجه الذي سينهجه والطريقة التي سيتبعها في معاملته لرعيته حيث قال: «ألا إنّ أقوامك عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه»²، فالقوي الجبار الظالم عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه، والضعيف المظلوم عنده قوي حتى يأخذ الحق له، فالصديق يريد بقوله هذا تحقيق العدالة الاجتماعية، وهذا هو الدستور الذي سنه الصديق رضي الله عنه على نفسه وسار عليه، إذ قال وفعل وقد أثبت التاريخ ذلك، إذ أنّ العرب الذين ارتدوا رغم عددهم وعتادهم كانوا ضعفاء أمام الصديق رضي الله عنه حتى أعادهم إلى طريق الحق والهداية.

وقبل أن يتحدث الخطيب عن منهجه بيّن أولاً أنه تم اختياره كخليفة ولكنه ليس بخيرهم، حيث قال «أيها الناس: إني قد وليت عليكم ولست بخيركم»³، وهذه حجة ابتدائية لحجة ثانية، أي أن فيهم رجال ثقة ثقة فالواجب عليهم إعانتة إذا رأوه على حق، والواجب عليهم تسديد رأيه إن رأوه على باطل، ويطيعوه إن أطاع الله، وإن عصاه فلا طاعة له، يقول الخطيب بعد أن بين مكانته ومكانة الصحابة منه: «فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»⁴، ثم يقر الخطيب بالمنهج الذي سيتبعه، وهو المنهج الذي قاله وعمل به وقد شهد التاريخ على ذلك.

ومنه فقد جاءت الحجج في الخطبة مرتبة ترتيباً تصاعدياً ضمن سلم حجاجي، ينتقل فيه الخطيب من حجة قوية إلى حجة أقوى منها على النحو الآتي:

¹ علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، دار المنارة، جدة، ط3، 1976، ص276.

² أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص180.

³ المصدر نفسه، ص180.

⁴ المصدر نفسه، ص180.

← **-نتيجة:** أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه (تحقيق العدالة الاجتماعية).

-حجة:3/ أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

-حجة:2/ فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني.

-حجة:1/ إني قد وليت عليكم ولست بخيركم.

يتدرج الخطيب في عرض حججه، من أجل استدراج المتلقي والتأثير فيه، فقد بدأ بحجة عامة ثم حجة خاصة لينتهي إلى نتيجة.

ونلاحظ أنّ خطبة **الصديق** رضي الله عنه رغم أنها أول خطبة له كخليفة إلا أنها قصيرة غير مخلة بالمعنى، فلم تأت طويلة مملة، لأن **الصديق** رضي الله عنه كثيراً ما كان يوصي بقلة الكلام، خاصة لقواده الذين قادوا معارك الفتوح، فنجدّه يوصي **خالد بن الوليد** قائلاً له: «أقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك»¹، وهي ملاحظة هامة من رجل شهد له بالفصاحة والبيان، وقد كان يقول **ليزيد بن سفيان**: «إذا وعظتم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً»²، لذلك أوجز **الصديق** رضي الله عنه لأنه يريد من المتلقي وهم الصحابة رضوان الله عنهم أن يستوعبوا موقفه ومنهجه، فنجدّه قد ركز على قضيتين وأوجز فيهما:

القضية الأولى: إن أطاع الله ساندوه، وإن عصاه سدّدوه.

القضية الثانية: الضعيف قوي عنده حتى يأخذ الحق له، والقوي ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه، أي سيعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي.

لذلك جاء كلامه قليل يغني عن الكثير «كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، حين تكون المسألة مسألة الدلالة على المنبت والنبات»³، أي أن كلامه جاء بليغاً، فقد توفرت في خطبته هذه شروط البلاغة، لأنها كثيراً ما عُرِفَتْ بأنها التعبير عن

¹ عباس محمود العقاد، عبقرية أبو بكر الصديق، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، ص 137.

² المرجع نفسه، ص 137.

³ المرجع نفسه، ص 139.

المقاصد بكلام قليل مع فصاحته، وسميت البلاغة بلاغة لبلوغ المعاني المرادة مع إيجاز في القول، يقول الخطيب القزويني «بلغ الرجل بلاغة إذا كان يبلغ بعبارته كنه مراده من إيجاز بلا إخلال أو إطالة بلا إملال»¹، ويعرفها الرماني بقوله: «إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»²، وهو ما استطاع الصديق رضي الله عنه تحقيقه، كما يعرفها ابن المعتز في قوله: «البلاغة البلوغ إلى المعاني ولم يطل سفر الكلام»³، أي الدلالة على المعاني بكلام قليل يصل إلى ذهن السامع فيستوعبه، لذلك جاءت الخطبة بليغة أغنت بقليل من الألفاظ عن الكثير.

2.3. الروابط الحجاجية:

استخدم الخطيب الرابط الحجاجي "الفاء" الذي اتصل بأدوات الشرط في قوله: «فإن رأيتُموني على حق فأعينوني،... فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»⁴، واستطاع بذلك أن يجعل الحجج مرتبطة بالمتلقي ومقتربة بشروط حتى يحققها.

وتظهر الخطبة كتلة واحدة متماسكة الأجزاء وذلك بفعل أداتي الربط "الواو والفاء"، فقد أظهرتا الخطبة حجة واحدة غير قابلة للدحض، ونتيجة واحدة أذعن لها المتلقي واقتنع بها. فالخطيب في قوله: «فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسددوني»⁵، جعل الفعل الأول مرتبط بالثاني، والثاني مرتبط بالثالث ارتباطاً يصعب فيه الفصل بين أجزائه، وهذا التماسك الشديد بين الأفعال أنتج حجة واحدة مفادها: الطاعة إذا أصاب، وتسديد رأيه إذا أخطأ، وبهذا يستطيع الجميع أن يساهم في تحقيق النتيجة (تحقيق العدالة الاجتماعية).

¹ عبد الرحمن القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، شرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904، ص35.

² المرجع نفسه، ص35.

³ المرجع نفسه، ص35.

⁴ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص180.

⁵ المصدر نفسه، ص180.

3.3. العوامل الحجاجية:

أولاً: الحجاج بالتوكيد.

جاءت حجج ونتائج الخطبة مؤكدة بأداة التوكيد "إنَّ": «إني قد وليت عليكم،... إنَّ أقوامم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له»¹، وقد حرص الخطيب على التوكيد في خطبته الأولى كخليفة من أجل إثبات فعل الولاية: «إني قد وليت عليكم»²، وإلى جانب التوكيد بأنَّ، فقد اتصلت قد بالفعل "وليت" لتزيده توكيداً -توكيد مضاعف-، ففعل الولاية تحقق لا مراء، بالرغم من أنه ليس بخيرهم وهذا أيضاً أكدّه الصديق رضي الله عنه، ولا بد إذن من طاعة أولي الأمر منهم إذا أطاع الله فهذه أمانة، وتسديد رأيه إذا أخطأ ولا يدعون أن أراءه كلها طائفة فهذه خيانة.

كما جاءت النتيجة مؤكدة بأداة التوكيد "إنَّ" في قوله: «إنَّ أقوامم عندي»³، ليؤكد الخطيب فعل تحقيق العدالة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، وهذا هدف أي راعٍ مسؤول عن رعيته، فلا يطغى القوي على الضعيف، ولا يسكت الضعيف عن حقه المسلوب، لذلك جاء العامل الحجاجي "إنَّ" حامل لطاقة حجاجية، حيث عمل على إثبات أفكار الخطيب والعمل على تحقيقها في الوقت القريب، كما عمل على توكيد فعل الولاية التي تمت برضى كبار الصحابة الذين تتوفر فيهم شروط الولاية أيضاً، وتوكيد فعل تحقيق العدالة الاجتماعية مما، جعل المتلقي يقتنع بالخليفة الأول والاطمئنان لحال المسلمين خاصة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الحجاج بالتضاد.

لجأ الخطيب في خطبته إلى التضاد (أقوامم، أضعفكم، القوي، الضعيف، آخذ الحق منه، آخذ الحق له)، ليظهر أنه حريص في معاملته لرعيته، ويستطيع أن يتعامل مع جميع فئات المجتمع أقواها وأضعفها.

¹المصدر السابق، ص180.

²المصدر نفسه، ص180.

³المصدر نفسه، ص180.

واستخدم الخطيب تضاد الأفعال والأسماء من خلال قوله: «إن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إنَّ أقوامك عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه»¹، والملاحظ أن الخطبة كلها تضاد، وقد استطاع هذا التضاد أن يُظهر اهتمام الخطيب بكل التفاصيل التي تخص رعيته، واهتمامه بجميع فئات المجتمع وقضاياها، واستطاع أن يحاجج المتلقي مهما كانت حالته الاجتماعية، فحاجج الضعيف بأنه يستطيع أن يسترجع حقه الذي سلب منه ظلمًا، وحاجج القوي بأنه لا يستطيع ظلم الآخرين وسلب أموالهم أو زهق أرواحهم، ومن خلال تضاد الأفعال: (أطعته، عصيته، أطيعوني، لا طاعة، أعينوني، سددوني) والأسماء: (الضعيف، القوي، الحق، الباطل)، وحتى التضاد بالحروف: (أخذ الحق منه، أخذ الحق له) حاجج الخطيب جميع طبقات المجتمع الإسلامي وانتهى إلى إقناعهم بآرائه وإثبات الأفكار التي يؤمن بها.

4. خطبة ثانية له بعد البيعة:

1.4. السلام الحجاجية:

أرسل الصديق رضي الله عنه جيشًا قائده أسامة لمحاربة العرب المرتدة ومن بعدها محاربة الروم، لكن الأنصار لم يرضوا بالقائد فبعثوا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالوا: «بلغ الخليفة إذا أصر على توجيه الجيش أننا نطلب قائدًا أكبر سنًا من أسامة»²، فالصحابه لم يرضوا بأسامة قائدًا، أي أنهم رفضوا أول قرار اتخذته الصديق رضي الله عنه كخليفة، فأرادوا حسب رأيهم قائدًا أكبر سنًا وأكثر خبرة في الحروب من أسامة، وما كان للصديق أن ينهي جدال عمر بن الخطاب رضي الله عنهما - بمقولته المشهورة:

¹المصدر السابق، ص180.

²علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، ص137.

«ثكلتك أمك وهدمتك يا بن الخطاب ولاه رسول الله وتأممني أن أعزله»¹، فجيش أسامة قد بعثه رسول الله عز وجل وأمره أن يوطئ بمنطقة البلقاء والداروم* من أرض فلسطين، لكنه لم يجاوز الجيش آخر الخندق حتى قبض رسول الله عز وجل فوق أسامة بالناس حتى استخلف الصديق رضي الله عنه، لذلك انقسم الصحابة على رأيين: رأي يقول بتوقيف الجيش من محاربة الروم ليتفرغ أولاً في محاربة العرب المرتدة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى هذا الرأي، وآخرون لم يرضوا بأسامة قائداً، فأراد الصديق رضي الله عنه أن يدعو الناس للجهاد في سبيل الله، ويؤكد لهم أنه يتبع طريق الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يبتدع شيء من عنده.

لذلك وقف الصديق رضي الله عنه خطيباً، يريد أن يبين موقفه وبقيته عليه الحجة، ويدعو الناس للجهاد في سبيل الله، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيها الناس: إنما أنا مثلكم»²، فالخطيب دائماً ما يبدأ بالبديهيات الأولى التي يشترك فيها جميع الناس ويجعل منها حجة أولية، وأراد أن يبين أنه يصيب ويخطئ كجميع الناس، فبعد أن انقطع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح كل شيء نسبي، ومنه ينتقل الخطيب إلى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عصمه الله عن الخطأ واصطفاه عن العالمين، وهو مؤيد بالوحي الذي يجعله لا يخطئ، وبعد انقطاع الوحي أصبح لازماً على الصديق رضي الله عنه أن يجتهد في إصدار الأحكام، ويقضي بين الناس بما يراه مناسباً وعدلاً لهم، يقول الخطيب: «إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات»³، فهو يحاول أن يتبع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يكون مبتدع، أي يحاول قدر جهده إتباع ما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم وأن لا يأتي ببدع ويزيغ عن الطريق المستقيم، وفي ذلك يقول: «وإنما أنا متبع ولست

¹ المرجع السابق، ص 137.

* البلقاء: منطقة شرقي الأردن، و الداروم قلعة جنوبي غزة.

² أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، 181.

³ المصدر نفسه، ص 181.

بمبتدع»¹، وهنا يحاجج الخطيب الذين عارضوا أن يكون أسامة قائداً للجيش، فقد بين لهم أنه كجميع الناس غير معصوم عن الخطأ مثلما كان رسول صلى الله عليه وسلم وكل ما يحاول فعله هو إتباع ما انزله الله في كتابه وما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته ولا يزيغ عنها، ثم يقول: «فإن استقممت فتابعوني، وإن زغت فقوموني، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض، وليس لأحد من هذه يطلبه بمظلمة ضربة صوت فما دونها»²، هذا هو الخطيب يعيد ما قاله ليؤكد ويرسخه في العقول، بأنه إنسان يخطئ ويصيب، فعليهم تقويمه إن أخطأ وإعانتته إن استقام وأصاب، وقد كرر هذه المعاني في خطبته بألفاظ أخرى للتأكيد، وهذا يدل على حرصه الشديد على إيصال المعنى للمتلقي، ثم نجده يقول بعد ذلك: «إن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني»³، أي أن له غضب يعتريه، فعليهم اجتنابه إذا غضب، لذلك جاءت حجج هذه القضية مرتبة في سلم حجاجي كالآتي:

- ↑ **نتيجة:** و إنما أنا متبع و لست بمبتدع، فإن استقممت فتابعوني، وإن زغت فقوموني.
- حجة/4:** و إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض.
- حجة/3:** عصمه من الآفات.
- حجة/2:** إن الله اصطفى محمداً على العالمين.
- حجة/1:** إنما أنا مثلكم.

وينتقل الخطيب إلى قضية ثانية هي الدعوة إلى الجهاد أي أن الخطيب عالج في خطبته قضيتين:

– القضية الأولى: قضية رفض بعض الصحابة أسامة قائداً للجيش، واستغل الصديق رضي الله عنه الموقف من أجل نفي عن نفسه البدع، وأن الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد انقطع، وهو يحاول قدر جهده إتباع ما جاء به الرسول

¹المصدر السابق، ص181.

²المصدر نفسه، ص181.

³المصدر نفسه، ص181.

الأمين، ويجتهد في رأيه ويصدر أحكامه بما يخدم الأمة الإسلامية، وجعل لهذه القضية مجموعة من الحجج مرتبة ترتيباً تصاعدياً في سلم حجاجي.

-القضية الثانية: الدعوة إلى الانضمام إلى الجيش من أجل الجهاد، فهو من أشرف الأعمال التي تقربهم إلى الله، وقد جعل لهذه القضية حجج خاصة بها ضمن سلم حجاجي، ومنه فالخطبة تحتوي على سلمين حجاجيين.

وجاءت حجج القضية الثانية كالاتي:

يدعو الخطيب إلى أن يمضي الأجل في عمل صالح وفي ذلك يقول: «ألا وإنكم تغدون وترحون في أجل قد غُيِبَ عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح فافعلوا»¹، أي إن استطعتم ألا يمضي أجلكم إلا في عمل صالح فافعلوا، ويقصد بالعمل الصالح هنا الجهاد في سبيل الله، ثم يقول: «فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال»²، أي سارعوا في عمل الخير، وسابقوا أجلكم قبل أن يسبقكم بالموت فتنتقطع الأعمال، ويضرب الصديق رضي الله عنه مثلاً في حجة (حجة المثال) فيقول: «فإن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فإياكم أن تكونوا أمثالهم»³.

وفي النتيجة استخدم الخطيب أسلوب الإغراء والتحذير، إذ حذر معشر المسلمين من انقضاء آجالهم وهم في غفلة، ودعاهم إلى الجهاد في سبيل الله فهو باب من أبواب الجنة، والإسراع للفوز بإحدى الحسنيتين: النصر على المشركين أو الشهادة في سبيل الله.

وقد أدرج الخطيب لهذه القضية مجموعة من الحجج مرتبة ترتيباً تصاعدياً في سلم حجاجي ممثلاً كالتالي:

¹المصدر السابق، ص 181.

²المصدر نفسه، ص 181.

³المصدر نفسه، ص 181.

نتيجة: إياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدّ الجدّ، والوفا الوفا، والنّجاء النّجاء، فإن وراءكم طالباً حثيثاً، أجلاً مره سريع، احذروا الموت واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات، فالنتيجة هي دعوة الخطيب إلى الإسراع في عمل الخير والجد فيه، وأول هذه الأعمال: الجهاد في سبيل الله.

- **حجة/4:** إن قومًا نسوا آجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم.
- **حجة/3:** سابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تسلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال.
- **حجة/2:** فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل الخير فافعلوا.
- **حجة/1:** ألا وإنكم تغدون وترحون في أجل قد غيب عنكم علمه.

2/4: الروابط الحجاجية

جاءت حجج ونتائج الخطبة عبارة عن جمل معطوفة بعضها على بعض، من خلال حرف العطف (الواو) الذي يعمل على الترتيب، كما يتخللها في بعض الأحيان دخول حرف (الفاء) الذي يقيد الترتيب مع التعقيب.

ويبدأ الخطيب بربط حججه بالرباط الحجاجي (الواو) من خلال قوله: «إنما أنا مثلكم، وإني لا أدري...، وعصمه من الآفات، وإنما أنا متبع، ولست بمبتدع»¹، وقد عملت (الواو) على ترتيب الحجج وتسلسلها، كما جاء الرباط الحجاجي (الفاء) ليربط بين الشرط وجوابه (دخول الفاء على جمل الشرط) لتربط الأسباب بالمسببات، وقد جاءت الفاء فعلية طلبية يقول الخطيب: «فإن استقممت فتابعوني، وإن زغت فقوموني... فإذا غضبت فاجتنبوني»²، وقد ارتبطت الفاء بفعل جواب الشرط فجاءت فعلية طلبية: فتابعوني، فقوموني، فاجتنبوني، فالخطيب يطلب من المتلقي القيام بهذه الأفعال إذا توفرت الشروط: استقممت، زغت، غضبت.

والملاحظ أن (الفاء) لم تتصل بالجملة فقط "جمل جواب الشرط"، بل جاءت متصلة بأدوات الشرط أيضا: (فإذا، فإن)، وقد عملت على تأكيد مقاصد الخطيب وزادت من شحنة الجمل الحجاجية، فقد عملت (الفاء) كرابط حجاجي على وظيفتين:

- وظيفة الترتيب والتعقيب، إذ جاءت في بداية الجمل واتصلت بأدوات الشرط لتربط الجملة الشرطية باعتبارها حجة بالجملة التي تسبقها باعتبارها حجة سابقة عنها.
- الوظيفة الفعلية الطلبية، وتظهر من خلال أنها عكست أوامر الخطيب ونواهيه، وربط السبب بالمسبب، فالتقويم سببه الزيع، والإتباع سببه الاستقامة، والاجتناب سببه الغضب.

¹المصدر السابق، ص181.

²المصدر نفسه، ص181.

كما تظهر وظيفة الرابط الحجاجي (الفاء) على إظهار الطاقة الحجاجية للخطاب، من خلال اتصالها بأدوات التوكيد: «فَإِنَّ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ...فَإِنَّ وراءكم طلباً حثيثاً»¹، والتوكيد يدل على وجود أراء متضاربة لذلك حرص الخطيب على أن تكون الحجج وكذا النتائج مؤكدة حتى لا يجعل مجال للشك.

ومجمل القول أن الروابط الحجاجية قد عملت على ترتيب الحجج وتعقيبها، وعملت على إظهار الطاقة الحجاجية للخطاب من خلال عكس ما يريد الخطيب وهي بمثابة الأوامر، وعكس ما لا يريده و هي بمثابة النواهي.

3.4.العوامل الحجاجية.

أولاً: الحجاج بالقصر.

نجد في هذه الخطبة كثرة أساليب القصر، إذ أن الصديق رضي الله عنه قد بدأ خطابه الحجاجي بقصرو ختمه به، فبدأ يقول: «إنما أنا مثلكم»²، وفي أواخر الخطبة قال: «ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات»³، واستخدم الخطيب أسلوب القصر بثلاثة طرق: القصر بإنما، القصر بالنفي والاستثناء، القصر بتقديم ما حقه التأخير، والقصر بإنما يفيد «إثبات الشيء والنفي عن غيره دفعة واحدة»⁴، فالخطيب بقوله: «إنما أنا مثلكم... إنما أنا متبع»⁵، يريد القول أنه ما هو إلا رجل منهم، له ما له وعليه ما عليه، يخطئ ويصيب، وغير معصوم عن الخطأ مثلما هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي عصمه الله بالوحي، وإنما هو متبع، أي قصر نفسه على إتباع ما أنزله الله في كتابه وما جاء به نبي الله صلى الله عليه وسلم في سنته، ونفي عن نفسه ما عدا ذلك جملة واحدة.

¹المصدر السابق ، ص181.

²المصدر نفسه ، ص181.

³المصدر نفسه، ص181.

⁴السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تدقيق و توثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1999، ص169.

⁵أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص181.

والخطيب من خلال هذا القصر لا يقول شيء يجهله المتلقي، فالصحاباء- رضوان الله عليهم- يعلمون أن الصديق مثلهم وأنه لا يبتدع أشياء من عنده، وإنما أراد التنبيه والتذكير، يقول عبد القاهر الجرجاني بخصوص القصر بإنما: «إنك تقول للرجل: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك القديم، لا تقول لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، إلا أنك تريد أن تنبه للذي يجب عليه حق الأخ، وعزمه على ذلك»¹، فالمتلقي (الصحاباء) على علم أن الصديق رضي الله عنه مثلهم ويقرون بأنه غير مبتدع، ولا يحتاجون إلى إثباتات على ذلك، وإنما أراد الخطيب تنبيههم وتذكيرهم بواجبهم كرعية، وتذكيرهم أيضاً بحقه عليهم كخليفة، وعليه لا يقول الخطيب شيئاً يجهله المتلقي، وإنما أراد تذكيرهم بالأمر المعلوم ويبني عليه حججه بما يوجب عليهم، فالواجب عليهم إعانتة إن أصاب، وتسديد رأيه إن أخطأ، من خلال تذكيرهم بأمر ثابت معلوم لا ينكرونه بحال.

والقصر بالنفي والاستثناء نوع من أنواع القصر ويُراد به «قصر الشيء وحصره بصاحبه من دون سواه»²، أي تأكيد الصفة وقصرها على الموصوف، أو تأكيد الموصوف وقصره على الصفة، يقول الخطيب: «ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عمل صالح... ولا تغطوا الأحياء إلا بما تغطون به الأموات»³، ويتضح القصر من خلال تخصيص الأجل بالعمل الصالح، أي قصر الأجل على العمل الصالح وقصر غبط الأحياء على الأموات. يظهر الخطيب من خلال هذا النوع من القصر موقفاً مغايراً لما يعتقده المتلقي، ويدحض مجموعة من المواقف من خلال إثبات موقف واحد، فهو يثبت ضرورة انقضاء الأجل في العمل الصالح وينفي كل ما عداه، ويدعوا إلى أن يكون غبط الأحياء بما نغبط به الأموات ونفي كل غبط آخر، وهذه عبارة عن نتائج جاءت على شكل أسلوب النفي والاستثناء.

¹ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 330.

² المرجع نفسه، ص 363.

³ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص 181.

ونجد في الخطبة أيضاً القصر بتقديم ما حقه التأخير، ويظهر ذلك بتقديم الضمير "إياكم" على الجملة "أن تكونوا أمثالهم"، وعمل التقديم على تخصيص الضمير "إياكم" - الضمير "كم" عائد على الصحابة - وإعطاء أهمية له.

ثانياً: الحجاج بالتوكيد

يعد التوكيد أسلوب حجاجي يستند عليه المحاجج لجعل المتلقي يسير في الاتجاه الذي يرسمه له، وقد جاءت الحجج في الخطبة مؤكدة بأداة التوكيد "إنَّ" في قوله: «إني لا أدري... إنَّ الله اصطفى محمداً على العالمين... إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض»¹، والغاية من الإتيان بالجمال المؤكدة - باعتبارها حجج - هي التأثير في المتلقي و إقناعه، وهي تداولية حجاجية في المقام الأول، لأن الخطيب يسعى إلى إثبات مجموعة من الحقائق و دفع الشك عنها فكان التوكيد وسيلته.

وإذا كانت الحجج قد جاءت مؤكدة بأدوات التوكيد فإن النتائج قد جاءت مؤكدة بال تكرار (التوكيد اللفظي)، وذلك عن طريق أسلوب الإغراء، يقول الخطيب: «الجدُّ الجدُّ، والوحا الوحا، والنجاء النجاء»²، وقد عمل التوكيد اللفظي على استدراج المتلقي إلى الاقتناع بالنتائج المعروضة عليه.

ثالثاً: الحجاج بالنفي.

يستعمل أسلوب النفي من أجل الإثبات، أي نفي شيء لنثبت شيء آخر، وقد لجأ إليه الخطيب لينفي عن نفسه البدع ويثبت بذلك أنه يتبع ما جاء به الكتاب وما سنته السنة النبوية، فهو مستقيم في التعامل مع رعيته، فتحجج الصحابة على قيادة أسامة للجيش جعل الصديق رضي الله عنه يحرص على إثبات أنه يحاول أن يتبع خطوات الرسول صلى الله عليه وسلم وينفي عن نفسه البدع، يقول: «لست مبتدع»³ ليقول في إثبات مؤكد «إنما أنا

¹المصدر السابق، ص181.

²المصدر نفسه، ص181.

³المصدر نفسه، ص181.

متبع»¹، واستطاع أسلوب النفي الكشف عن الطاقة الحجاجية للخطاب بإظهار رأي الخطيب ونفي الآراء المعادية لها.

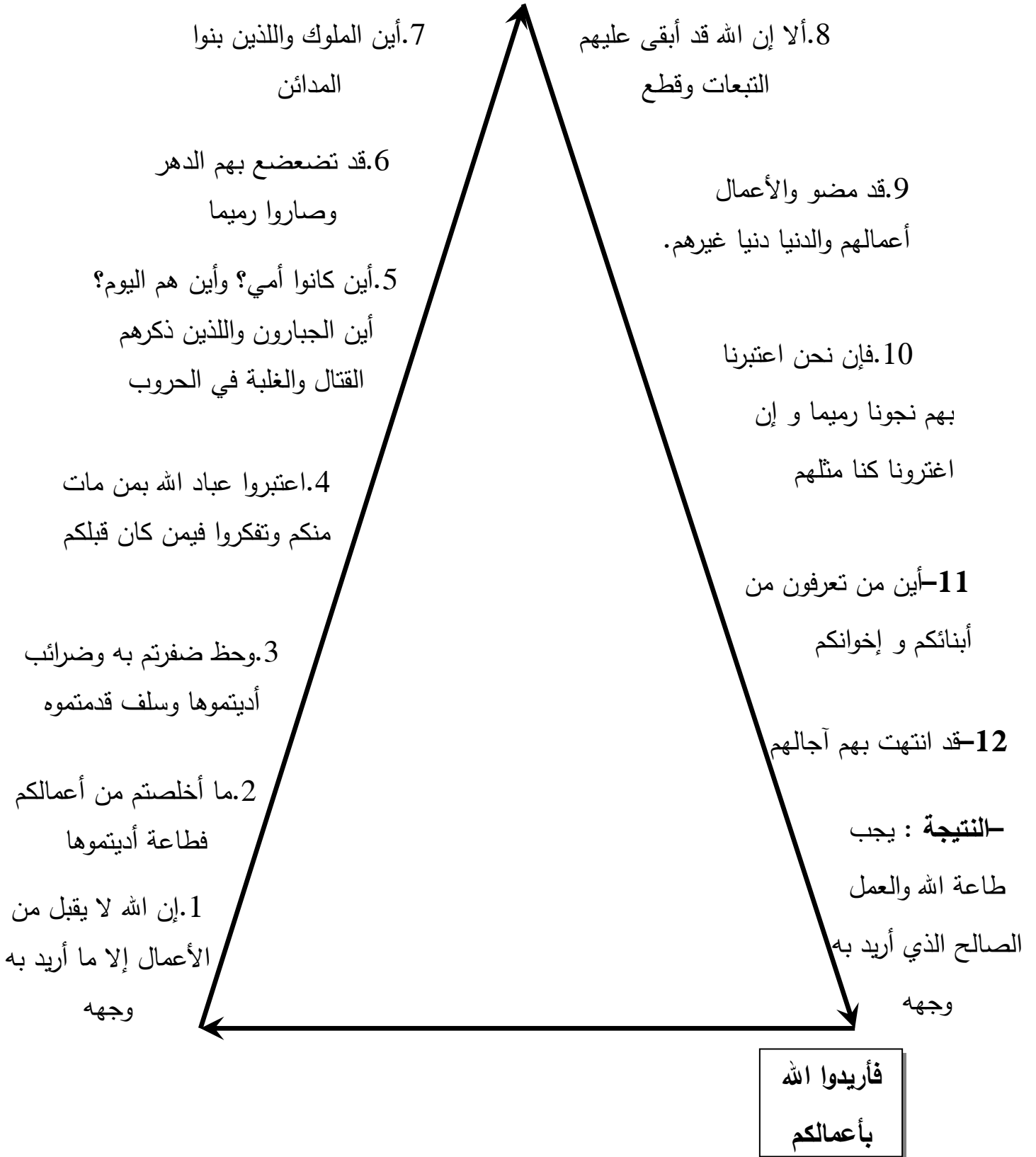
¹المصدر نفسه، ص181.

5.خطبة أخرى للصديق رضي الله عنه

1.5.السلام الحجاجية

يقول الصديق رضي الله عنه في خطبة له واعظاً الناس مرشداً لهم داعياً فعل الخير محرضاً على أن تكون الأعمال تقرب العبد إلى ربه، حتى تدخله الجنة وتبعده من عذاب جهنم، ويدرج لهذه القضية مجموعة من الحجج مرتبة ترتيباً هرمياً، إذ أن الخطيب يحاجج بقيم يتدرج بها مخضعاً إياها لهرمية، فالخير درجات والشر درجات ليرجع إلى أول حجة انطلق منها ضمن ما يسميه أصحاب نظرية الحجاج: "الهرمية"

فجاءت الحجج كالاتي:



فالصديق رضي الله عنه يتدرج في عرض حججه، فيبدأ من نقطة وهي ضرورة فعل الخير ابتغاء رضى الله لينتهي إليها، ضمن هرمية حاجية أورد فيها من الأمثلة والشواهد ما يخدم حججه، حيث كثرت في الخطبة حجج المثال، فقد عمد الخطيب إلى ضرب الأمثلة عن الأمم السابقة، وتسأل كثيراً عن الملوك والأمم البائدة التي عرفها تاريخ الإنسانية، وتسأل عن القصور التي شيدتها، والمدائن التي حصنتها، والمعارك التي فازت فيها، فقد كانوا طغاة جبارين، ويتساءل الخطيب: أين هم؟ وأين أصبحوا؟، لقد أصبحوا تراباً، ويدعم قوله بآية كريمة بألفاظها ومعانيها حتى تزيد حججه قوة ومتانة، يقول: «أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية، وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزاً»¹.

وقد استدعى الخطيب النص القرآني ضمن كلامه، إذ اقتبس من أواخر سورة مريم، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [سورة مريم: الآية 98]، وجاءت هذه الآية ضمن تساؤلات الخطيب التي طرحها في خطبته.

وشكلت الأسئلة المطروحة حجة يستدرج الخطيب من خلالها المتلقي إلى نتيجة ضمنية، وإن كان الخطيب قد صرح بها في مطلع خطبته مفادها: أنَّ العبد ملاقي ربه، وينتهي أجله مثلاً انتهى أجل سابقه، فعليه بتقوى الله وإعداد الزاد لملاقاته والمصارعة في عمل الخير ابتغاء مرضاته، وهي القضية التي انطلق منها ليعود إليها، وبذلك جاءت الحجج مرتبة ترتيباً هرمياً تبدأ من نقطة (المصارعة في عمل الخير الذي يرضي الله) لتنتهي إليها.

¹المصدر السابق، ص 182.

2.5. الروابط الحجاجية:

المنتبع لهذه الخطبة يجد أن الخطيب قد استخدم الرابط الحجاجي "الفاء الذي اتصل بالفعل فدل على الفورية في قوله: «فأريدوا الله بأعمالكم،... فوردوا على ما قدموا، فخلوا عليه»¹، وقد استطاع هذا الرابط الحجاجي أن يعكس مدى إخلاص الصديق رضي الله عنه في النصيح، ودعوته إلى الإسراع في الأخذ بالنصيحة للنجاة من بلاء جهنم.

كما ربط الرابط الحجاجي "الفاء" بين ما قدم السلف من أعمال قاموا بها والعقاب الذي حل بهم، فقد كان عقاب فوري لم يؤجل لحين في قوله: «فوردوا على ما قدموا»²، فالفاء قد بين تحقق فعل هلاك وموت الأمم السابقة، لذلك عندما اتصلت الفاء بالفعل "وردوا" نبه الخطيب إلى العقاب الفوري الذي حل بهم، ويدعوا المتلقي إلى الاعتبار بهم والإسراع في طاعة الله والعمل الصالح الذي يرضيه حتى ينجو من العقاب الذي إذا حل يقوم لا يؤخرونه ساعة ولا يقدمون.

كما عمل الرابط الحجاجي "الواو" على تسلسل الحجج والتي هي بمثابة حقائق تاريخية سبق وأن وقعت، فقد جعلت "الواو" تلك الحقائق تبدو كتلة واحدة غير قابلة للفصل، فهي مجموعة من الحجج تصب في معنى واحد وهو هلاك الأمم السابقة، لذلك جاءت النتيجة تحذير من عواقب الأفعال وتجنب غضب الله بالإسراع إلى طاعته والحرص على مرضاته.

¹المصدر السابق، ص182.

²المصدر نفسه، ص182.

3.5. العوامل الحجاجية:

أولاً: الحجاج بالفعل.

تتعدى اللغة بكونها وسيلة اتصال إلى أداة تستخدم من أجل التأثير والإقناع، لذا كثيراً ما نجد أقوالاً «تهدف بالأساس إلى صياغة واقع جديد»¹، أي أننا نقول قولاً نبتغي منه فعل شيء ما، لأن القول نفسه قد يكون فعلاً «خاصة إذا كنا إزاء خطاب حجاجي»²، وغاية القول هي الإقناع والحمل على الإذعان.

ونجد في الخطبة مجموعة من الأفعال: (فأريدوا-وعلموا-أتيتموها-أديتموها-قدمتموه-اعتبروا-تفكروا-تضعضع-اعتبرنا-اغتررنا-بنوا-حصنوا-جعلوا-تحس-تسمع-فودوا-قدموا-أقاموا-يصرف-اتباع-اعلموا-يدرك)، والخطيب من خلال الأفعال المضارعة: (تحس، تسمع، يدرك) ينقل لنا الواقع الذي يجب على المسلم أن يعيشه في الحياة، أي أنه يدعو المتلقي إلى القيام بمجموعة من الأفعال حتى يعيش عيشة هانية، وتكون عاقبته حسنة.

أما من خلال الأفعال الماضية: (بنوا، حصنوا، جعلوا، تضعضع) نقل لنا الواقع الغابر الذي عاشته الأمم السابقة، ليدعوا الخطيب عن طريق أفعال الأمر (اعتبروا، تفكروا) إلى في الماضي والاعتبار به والتعلم منه، لذا فالفعل في الخطبة قام بوظيفتين:

– وظيفة الإخبار عن الواجبات والأعمال التي يجب القيام بها.

– وظيفة الإنجاز والصنع.

فالخطيب يدعو دعوة فيها نوع من الأمر تارة والنهي تارة أخرى إلى الاعتبار بالسابقين، وعن طريق الأفعال استطاع أن يقنع المتلقي بضرورة انجاز مجموعة من الأعمال وبنهاه

¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته و أساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007، ص147.

² المرجع نفسه، ص147.

عن القيام ببعضها حتى لا يكون مصيره كمصير سابقه، فهو يدعو إلى اغتنام الحياة بطاعة الله عز و جل، والقيام بالعمل الصالح الذي يقرب العبد من ربه، كما حذرهم من أن يغتروا بزينة الحياة الدنيا، فما هي إلا متاع الغرور، وعليه تبدو علاقة الأفعال بالحجاج علاقة وطيدة لأنها تهدف إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين تحدده الحجج.

ثانياً: الحجاج بالاستفهام (أين).

يقوم التركيب الإنشائي بدور هام في العملية الحجاجية، فكثيراً ما تبنى الحجج في تراكيب إنشائية، فيعضد التركيب الإنشائي حجة قادرة على إثارة الأحاسيس واستدعاء العواطف، ويستطيع أن يشحن الخطاب بطاقة حجاجية من خلال إثارة المشاعر والدعوة في التفكير في الحجة المطروحة.

ويتمتع الاستفهام - باعتباره تركيباً إنشائياً - بأهمية كبيرة خاصة في إطار الخطاب الحجاجي، لأن الغاية من تقديم السؤال هو تحميل المتلقي على فعل أو ترك فعل شيء ما، فوظيفته كعامل حجاجي يتمثل في:

- يفرض على المخاطب إجابة محددة، فيتم توجيه الحجة إلى الوجهة التي يريد من خلال الاستفهام.

- يجبر المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه البعد الاستفهامي.

وقد اعتمد الخطيب على الاستفهام في تقديم حججه قائلاً: «أين الجبارون؟ أين كانوا أمس؟ وأين هم اليوم؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟... أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟»¹.

¹ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص 182.

ويوجه الخطيب إلى المتلقي مجموعة من الأسئلة (مجموعة من الاستفهامات بأداة الاستفهام "أين")، أو يتوجه إليه بمجموعة من الحجج جاءت في شكل استفهامات حاملة لطاقة حجاجية إقناعية هامة، لأنها عبارة عن أقوال تحمل في ذاتها إنجاز الأفعال، فهو أنجاز ضمنى يُحمل المتلقي على فعل القول الذي يتلقاه.

كما أن الخطيب قدم إجابات عن الأسئلة التي طرحها فكانت بمثابة نتيجة جزئية لنتيجة كبرى، لذا جاء الاستفهام مشكلاً حجة ونتيجة كالاتي:

سؤال ← حجة

جواب الخطيب:

أين هم الجبارون

أين الذين كان لهم ذكر القتال

و الغلبة في مواطن الحروب؟ جواب المخاطب

جواب المخاطب

يوقعه السؤال في حيرة ثم

فساد رأيه والتسليم بالرأي

الأخر (عدم الركون للعالم)

والاستعداد للآخرة)

سؤال ← حجة

جواب الخطيب ← نتيجة

أين الملوك الذين

قد بعدوا، و نُسيّ ذكرهم

أثاروا الأرض و عمروها؟

و صاروا كلاً شيء

أين الذين بنوا المدائن و حصنوها ← قد تركوها لمن خلفهم

بالحوائط؟ ← تأثر المتلقي و حيرته/اقتناعه بالحجج المعروضة عليه

واستفاد الخطيب من التأثير الذي أحدثه الاستفهام في نفسية المتلقي وحيرته، فقد ظهر حين طرحه السؤال في مظهر الذي يجهل ويطلب العلم من الطرف الآخر، في المقابل يجيب عن الاستفهام ليظهر بمظهر العارف فيكون الطرف الآخر هو الذي يجهل، واستطاعت هذه الأسئلة والأجوبة أن تُظهر الطاقة الحجاجية للخطاب، فلم يأتِ الاستفهام من أجل الاستخبار وطلب الجواب، بل هو وسيلة حجاج تهدف إلى حمل المتلقي على الإقرار بالجواب والتسليم به، وبالتالي تثبت عليه الحجة، لأن لجوء الخطيب إلى الاستفهام رغم علمه بجوابه شكلاً من أشكال الحجاج، يُحمِل المتلقي على الاقتناع من خلال دعوته إلى التفكير فيما سئل عنه، وعليه يكون بعد الاستفهام هنا بعد حجاجي أكثر منه جمالي فني.

كما تُظهر كثرة الاستفهامات شدة إلحاح الخطيب ورغبته في بناء واقع يكون العبد فيه يعمل لأجل إرضاء ربه، وأن يتفكر في الذين عاشوا قبله، ومهما كانت حالتهم فإنَّ مصير الجميع واحد هو الامتثال أمام يدي الله، لتحاسب كل نفس بما فعلت، ولا تجزى إلا بمثل ما عملت، فإن أحسنت فلها وإن أساءت فعليها.

كما أن الحجاج بالتكرار من خلال تكرار أداة الاستفهام (أين) تُظهر صدق دعوة الخطيب وقوة إيمانه الذي تمكن من نفسه، ويعبر عن حرص الخطيب على النصح وإخلاصه في ذلك، حتى تكون أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأمة الناجية، ولا يكون مصيرها كمصير الأمم السابقة التي حل عليها غضب الله، ويسوق لدعوته ونصحه مجموعة من الحجج جاءت على شكل أمر ونهي واستفهام، ليصل الخطيب إلى إقناع المتلقي، فهذه الأساليب قادرة على تحريك الوجدان وإذعان العقول وإحداث الإقناع.

ثالثاً: الحجاج بالقصر.

يستخدم أسلوب القصر من أجل: «توكيد الكلام تأكيداً حاسماً يقطع شك المخاطب وإزالة إنكار منكر»¹، ويعتبر القصر بالنفي والاستثناء من أقوى أساليب القصر، وغرضه تأكيد المعنى وتثبيتته في نفس المتلقي بحيث لا يستطيع إنكاره ولا يخالف فيه مخالف، لأنه يعتمد على النفي والإثبات «فالمفارقة بين النفي والإثبات تزيد الكلام تأكيداً وقوة»² وقد بدأ الخطيب خطبته بقصر قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ»³، لأنه لا ينزل المخاطب منزلة المخالف، وإنما أراد إثبات القضية التي يحتاج لأجلها وتأكيداً حاسماً يطرد الشك الذي قد يتسرب إلى ذهن المتلقي، وذلك بدحض مجموعة من المواقف وإثبات موقف واحد.

كما أنهى الخطيب كلامه بقصر جاء على صيغة النفي والاستثناء من أجل توكيد وإثبات رأي واحد في قوله: « وَأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْرِكُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ »⁴، فالصديق رضي الله عنه ينفي بدايةً كل الأعمال التي يقوم بها العبد إلا الأعمال التي يبتغي صاحبها مرضاة ربه، وفي آخر الخطبة يحصر إدراك ما عند الله ويخصه بالطاعة، لذا نجده يعتمد إلى إثبات قضية واحدة، وتأكيد أمر واحد (العمل الذي يرضي الله) وينفي كل ما عداه جملة واحدة، أي نفى أشياء كثيرة في كلام قليل عبّر عنه بجملة واحدة، وهنا تظهر قدرة أسلوب القصر على الحجاج، فهو «أقوى من غيره في سياق الجدل والاحتجاج والمناظرات»⁵، فالقصر له قدرة فائقة على الإقناع.

¹ عبد الرحيم محمد الهبيل، تجليات الجمال في أسلوب القصر، مجلة العامة الإسلامية، سلسلة الدراسات الانسانية، مج19، ع2، يونيو 2011، ص976.

² المرجع نفسه، ص978.

³ أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص182.

⁴ المصدر نفسه، ص183.

⁵ عبد الرحيم محمد الهبيل، تجليات الجمال في أسلوب القصر، ص878.

رابعاً: الحجاج بالتكرار.

يعمل أسلوب التكرار والمعاودة في الخطاب على توفير طاقة حجاجية تحدث أثراً في المتلقي، ويساعد على نحو فعال في إقناعه وحمله على الإذعان، لأن التكرار يهدف إلى تحقيق وظيفتين أولها «التبليغ والإفهام، ويعين ثانياً على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان»¹، وفي نجد الخطبة تكرر لفظي، وهو من الأساليب التي لها أثر كبير في الأسماع كما في الأذهان، وهذا ما جعله رافداً مهماً من روافد الحجاج، فمن خلال تكرار لفظ معين أو تكرار معنى واحد بتراكيب مختلفة يستطيع المحاجج إثبات حجته والتأثير في متلقيه.

ويكرر الخطيب أداة الاستفهام "أين"، إذ استخدمها بكثرة في خطبته، وقد عمل هذا التكرار على إثبات الحجة وتأكيدھا، فالخطيب يتساءل كثيراً عن الأمم البائدة، وشكل بهذه التساؤلات وهذا التكرار حجة لا يستطيع المتلقي إنكارھا، كما مست المخاطب في عواطفه وفي عقله، فاستطاعت الحجة الاستفهامية استمالة المتلقي والتأثير في أحاسيسه ومخاطبة العقول وإذعانها.

كما نجد تكرار لفظة "الأعمال" في قوله: «إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموھا،... ومضوا والأعمال أعمالهم»²، ونجد تواتر لفظة "طاعة" في قوله: «ما أخلصتم من أعمالكم فطاعة أتيتموھا،... ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته وإتباع أمره،... وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته»³، وتكرار الكلمتين (الأعمال والطاعة) جاء من أجل تأكيد

¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، ص 168.

² أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص 182.

³ المصدر نفسه، ص 182، 183.

القضية التي يحاجج من أجلها الخطيب، والحرص على تثبيتها في النفوس، أي تأكيد طاعة الله بالأعمال الصالحة.

وخلاصة القول أن الصديق رضي الله عنه استطاع اختيار الحجج المناسبة للتعبير عن المواقف المناسبة، فقد رتبها ترتيباً يضمن فيه استمالة المتلقي وإقناعه بالرأي المعروض عليه.

كما استخدم مختلف الروابط الحجاجية التي ساعدت على ربط الحجج وتسلسلها ما يجعلها تشكل حجة كبرى غير قابلة للدحض، إضافة إلى الدور الهام التي قامت به العوامل الحجاجية من توكيد وقصر وتضاد ونفي واستفهام في شحن الخطاب بطاقة حجاجية عملت على إذعان المتلقي والتسليم برأي الخطيب.

خاتمة

بعد أن تم استهلاك رؤية هذا التيار نظرياً وممارسياً وصل إلى محطته النهائية ليتم جمع أهم النتائج:

- تعتبر الدراسات التداولية من بين الدراسات اللسانية الحديثة، وقد سعت إلى دراسة اللغة في جانب استعمالها.
- وجدت نظرية الحجاج إرهاباتها التنظيرية الأولى في الفلسفة اليونانية تحديداً مع أرسطو في كتابه "الريطوريا" أي "الخطابة".
- تهتم نظرية الحجاج بالجانب الإقناعي في الخطاب، وقد نظر لها مجموعة من الدارسين أمثال "شايم بيرلمان وتيتيكا" وعندهما ظهر مصطلح "البلاغة الجديدة"، إضافة إلى الدراسات المهمة التي قام بها "أزوالد ديكر" في السلام الحجاجية.
- إذا كان الحجاج في التراث العربي متعلق بالحركة السوفسطائية وأساليب المغالطة، فإن الحجاج في التراث العربي متعلق بالجدل الذي ازدهر بظهور علم الكلام.
- الدراسة الحجاجية لمجموعة من الخطب المختارة لأبي بكر الصديق "رضي الله عنه" كشفت لنا عن الطاقة الإقناعية الكامنة في الخطب، من خلال اعتماد الخطيب على أساليب حجاجية للوصول إلى إقناع المتلقي وإقامة الحجة.
- اعتمد الصديق "رضي الله عنه" على حجاجية الأسلوب الإنشائي، ويتضح ذلك من خلال توظيفه في خطبه على مجموعة من صيغ الأمر والنهي والاستفهام حتى يكون خطابه أكثر إقناعاً وأكثر حجاجاً، خاصة وأن عصره عصر الاضطرابات والمخالفات وتضارب الآراء.
- جاءت حجج الصديق "رضي الله عنه" مرتبة ترتيباً تصاعدياً ضمن سلم حجاجي، ليضمن الخطيب استمالة المتلقي وحمله على الإذعان والتسليم للحجج التي عرضت عليه، فكانت الحجج مرتبة ترتيباً تصاعدياً في بعض الأحيان ومرتبة ترتيباً هرمياً في أحيان أخرى، حيث انطلق الخطيب من نقطة ليعود إليها في شكل هرمي.

➤ عملت العوامل الحجاجية المتمثلة في أسلوب القصر وأدوات التوكيد على وظيفة الحجاج، حيث سمحت بتوجيه خطاب الخطيب إلى مقاصده التي أراد بلوغها، وتوجيه المتلقي نحو فعل ما أو تركه (إقناعه)، فكان لأسلوب القصر دور فعال في دفع الشك عن المتلقي وإثبات رأي الخطيب من خلال إثبات رأي واحد ونفي كل ما عداه عن طريق أسلوب النفي والإستثناء، كما عملت أدوات التوكيد وأسلوب التكرار على تقوية الحجج وترسيخها في ذهن المتلقي ودفعه إلى الاقتناع بها، فقد استطاع الخطيب من خلال العوامل الحجاجية أن يبطل حجج الخصم، ويعرض عليه حجج أخرى أقوى، ويصل إلى التأثير في المتلقي ومن ثم إقناعه.

➤ كما عملت الروابط الحجاجية على ربط الحجج ربطاً محكماً وقامت على ترتيبها ترتيباً منسجماً، كما عمل الرابط الحجاجي (الفاء) على جعل بعض الحجج سبباً لبعضها، فجاءت الحجج بفعل الروابط الحجاجية كأنها حجة واحدة، وكذلك النتائج، فكان الخطاب الحجاجي بفعالها كتلة واحدة متماسكة الأجزاء.

الملاحق

1/: خطبة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة

حمد الله و أثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلامًا، و أكرمهم أحسابًا، و أوسطهم دارًا، و أحسنهم وجوهًا، و أكثر الناس ولادة في العرب، و أمسُّهم رحمًا برسول الله صلى الله، أسلمنا قبلكم، و قدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك و تعالى: ﴿و السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فنحن المهاجرين و أنتم الأنصار، إخواننا في الدين، و شركاؤنا في الفِء*، و أنصارنا على العدو، آويتم و وُاسيتم، فجزاكم الله خيرًا، فنحن الأمراء، و أنتم الوزراء، لا تدين العربُ إلا لهذا الحي من قريش، فلا تَنَفَسُوا* على إخوانكم ما منحهم الله من فضله»¹.

2/: خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه و سلم

خرج الصديق رضي الله عنه إلى الناس وهم في شديد غَمَرَاتِهِمْ، و في عظيم سكراتهم، فخطب خطبة قال فيها:

«أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمدًا عبده و رسوله، و أشهد أن الكتاب كما نزل، و أن الدين كما شرع، و أن الحديث كما حدَّث، و أن القول كما قال، و أن الله هو الحق المبين... في كلام طويل، ثم قال: أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، و أن الله قد تقدَّم إليكم في أمره، فلا تدعوه جَزَعًا، و إن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، و قبضه إلى ثوابه، و خلف فيكم كتابه، و سنة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، و من فرق بينهما أنكر، ﴿يَا أَيُّهَا

*الفِء: الغنيمة و الخراج.

*نفس عليه بخير (كفرج) حسده، و نفس عليه الشيء، نفاسه لم يره أهلاً له.

¹أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في العصور الزاهرة(العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام)دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د/ط، ص175.

الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ¹، وَ لَا يَشْغَلْكُمْ الشَّيْطَانُ بِمَوْتِ نَبِيِّكُمْ، وَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ
عَنْ دِينِكُمْ، فَعَاJلُوهُ بِالَّذِي تُعْجِزُونَهُ، وَ لَا تَسْتَظِرُّوهُ فَيُلْحَقَ بِكُمْ»¹.

3/: خطبته بعد البيعة

حمد الله و أنثى عليه، ثم قال:

«أيها الناس: إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَ لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى حَقِّ فَأَعِينُونِي، وَ
إِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى بَاطِلٍ فَسَدِّدْنِي، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتَ اللَّهُ فِيكُمْ، فَإِذَا عَصَيْتَهُ فَلَا طَاعَةَ
لِي عَلَيْكُمْ، أَلَا إِنْ أَقْوَاكُم عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ لَهُ، وَ أضعفكم عِنْدِي الْقَوِيُّ
حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَ لَكُمْ»².

4/: خطبة أخرى له بعد البيعة

و قال الطبري: نادى منادى أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه
وسلم: لِيُتِمَّ بَعَثُ أَسَامَةِ: أَلَا لَا يَبْقَيْنَ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ أَسَامَةِ إِلَّا خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَ
قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ، وَ إِنِّي لَا أُدْرِي لِعَلَّكُمْ سَتُكَلِّفُونِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطِيقُ، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَ عَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ، وَإِنَّمَا
أَنَا مُتَّبِعٌ، وَ لَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، فَأَنْ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي، وَإِنْ زَغَتْ فَقَوِّمُونِي، وَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبُضَ، وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ* ضَرْبَةِ سَوْطٍ
فَمَا دَنَوْهَا، أَلَا وَ إِنَّ لِي شَيْطَانًا* يَعْتَرِينِي، فَإِذَا غَضِبْتَ فَاجْتَنِبُونِي، لَا أُؤَثِّرُ فِي أَشْعَارِكُمْ

¹المصدر نفسه، ص180.

²المصدر السابق، ص180.

*الظلمة.

*قال ابن أبي الحديد: و أراد بالشيطان الغضب، ولم يرد أن له شيطانًا من مردة الجن يعتريه إذا غضب، و لو كان له
شيطان من الجن يعتاده و ينوبه لكان في عداد المصروعين المجانين، و ما ادعى أحد على أبي بكر هذا لا من أوليائه و
لا من أعدائه .

و أبشاركم* ، ألا وإنكم تغدون و ترحون في أجل قد غُيِّب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا و أنتم في عمل صالح فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل آجالكم من قبل أن تكونوا أمثالهم، الجدَّ الجدَّ، وَ الوَحَا* الوَحَا، وَ النَّجَاء* النَّجَاء، فإن وراءكم طالبًا حثيثًا* ، أَجَلًا مَرَّةً سريع احذروا الموت و اعتبروا بالآباء و الأبناء و الإخوان، و لا تَغْبُطُوا* الأحياء إلا بما تَغْبُطُونَ به الأموات»¹.

5: خطبة أخرى

قال الطبري: و قام أيضًا فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: «أَنَّ الله عَزَّ وَ جَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، فَأُرِيدُوا الله بِأَعْمَالِكُمْ، وَ اعْلَمُوا أَنَّ مَا أَخْلَصْتُمْ لَهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَطَاعَةٌ أُتِيَتْموها، وَحَظَّ ظَفِرُكُمْ بِهِ، وَضَرَائِبُ أُدِيَتْموها، وَسَلَفَ قَدَمْتُمُوهُ، مِنْ أَيَّامٍ فَانِيَةٍ لِأُخْرَى بَاقِيَةٍ، لَحِينَ فَقَرَكُمْ وَ حَاجَتَكُمْ، اعْتَبَرُوا عِبَادَ اللهِ بِمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، وَ تَفَكَّرُوا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. أَيْنَ كَانُوا أَمْسَ؟ وَ أَيْنَ هُمْ الْيَوْمَ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ وَ أَيْنَ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ ذِكْرُ الْقِتَالِ وَ الْغَلَبَةِ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ؟ قَدْ تَضَعُضِعَ بِهِمُ الدَّهْرُ، وَ صَارُوا رَمِيمًا، قَدْ تَرَكْتَ عَلَيْهِمُ الْقَالَاتُ* الْخَبِيثَاتِ، وَإِنَّمَا الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَ أَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا؟ قَدْ بَعَدُوا، وَ نُسِيَ ذِكْرُهُمْ، وَ صَارُوا كَلَا شَيْءٍ، أَلَا وَ إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِمُ التَّبَعَاتِ، وَ قَطَعَ عَنْهُمْ الشَّهَوَاتِ، وَ مَضُوا وَ الْأَعْمَالُ أَعْمَالُهُمْ، وَ الدُّنْيَا دُنْيَا غَيْرِهِمْ، وَ بَقِينَا خَلْفًا مِنْ بَعْدِهِمْ، فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ نَجُونًا، وَ أَنْ اغْتَرَرْنَا كَمَا مِثْلَهُمْ، أَيْنَ الْوِضَاءُ* الْحَسَنَةُ وَ

* أبشار جمع بشر، و هو جمع بشرة: و هي ظاهر الجلد.

* الوحا: العجلة و الإسراع، وحى و توحى: أسرع، ووحاه، عجله.

* النجاع. الإسراع أيضًا.

* حثيثًا: سريعًا.

* غبطه: تمنى مثل حاله من غير أن يريد زوال نعمته عنه.

¹المصدر السابق، ص 181.

* القول: في الخير، و القال و القيل و القلة: في الشر.

* الوضاء جمع وضيء: و هو الحسن و النظيف، و هو أيضًا وضاء بضم الواو و تشديد الضاد، و جمعه وضاءون.

جوههم، الْمُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ؟ صاروا ترابًا، و صار ما فرطوا فيه حسرةً عليهم، أين الذين بنوا المدائن و حصَّنوها بالحوائط، و جعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاويةً، وهم في ظلمات القبور، هل تُحِسُّ منهم من أحد، أو تسمع لهم رِكْزًا*؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم، فودوا على ما قدَّموا، فَحَلُّوا عليه، و أقاموا للشفقة و للسعادة فيما بعد الموت، ألا إِنَّ الله لا شريك له ليس بينه و بين أحد من خلقه سببٌ يعطيه به خيرًا، و لا يصرف عنه به سوءًا إلا بطاعته و اتباع أمره، واعلموا أنكم عبيد مَدِينُونَ، وأنَّ ما عنده لا يُدْرِك إلا بطاعته، أما وإنه لا خير بخيرٍ بعده النار، و لا شرٌّ بِشَرٍّ بعده الجنة¹.

*ركزا: الصوت الخفي.

¹المصدر السابق، ص182،183.

قائمة

المصادر

والمراجع

القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

أ/المصادر

1- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب الهرب في العصور العربية الزاهرة(العصر الجاهلي، عصر صدر الإسلام)، ج1، دار المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1.

ب/ المراجع باللغة العربية

2- أبو بكر العزاوي، اللغة و الحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006.

3- بهاء الدين محمود مزيد، تبسيط التداولية من أفعال الكلام إلى بلاغة الخطاب السياسي، دار شمس للنشر و التوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2010.

4- حافظ إبراهيم علوي، الحجاج مفهومه و مجالاته(دراسات نظرية و تطبيقية في البلاغة الجديدة)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010.

5- الحسين بن قاسم المرادي، الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

6 - حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، الهيئة العلمية لمكتبة الإسكندرية، مصر، ط1.

7- حسن مسكين، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

8- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تدقيق و توثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 1999.

9- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته و أساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007.

10- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط20.

11- صابر الحباشة، التداولية و الحجاج، مدخل متداخل النصوص، صفحات للدراسات و النشر، دمشق، سوريا، ط1، 2008.

- 12- عبد لقاھر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صححه: محمد عبدة و رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
- 13- عبد الرحمن الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904
- 14- عباس محمود العقاد، عبقرية أبو بكر الصديق، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1.
- 15- علي الطنطاوي، أبو بكر الصديق، دار المنارة، جدة، ط3، 1936.
- 16- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981.
- 17- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
- 18- عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين(المعتزلة، الأشاعرة، الإسماعلية، القرامطة، النصيرية)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1997.
- 19- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط2، 2007.
- 20- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج(دراسات و تطبيقات)، دار الجنوب للنشر و التوزيع، تونس، ط1، 2010.
- 21- علي الشبعان، الحجاج بين المنوال و المثال(نظرات في أدب الجاحظ و تفسيرات الطبري)، مسكلياتي للنشر، زعوان، تونس، ط1، 2008.
- 22- محمد العمري، دائرة الحوار و مزالق العنف(كشف أساليب الإغاثات و المغالطة مساهمة في تخليق الخطاب)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002.
- 23- محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2004.
- 24- محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل و التداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1.

25- محمد الباردي، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، تونس، ط1، 2004.

26- محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب)، مكتبة الطالب الجامعي، ط2.

27- محمد إبراهيم عثمان، أصول الجدل و المناظرة في الكتاب و السنة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2، 2000.

28- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم و النشأة و المبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 2013.

29- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب- دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث العربي-، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

ج/ المراجع المترجمة

30- آن ربول و جاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، تر: سيف الدين دغفوس و آخرون، مر: ليف زيتوني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

31- ترفتان تودوروف، ميخائيل باختين: المبدأ الحوارية، تر: فخري صالح، دار الفارس للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1996.

32- تون فان دايك، علم النص -مدخل متداخل الاختصاصات-، تر: سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2000.

33- جان سيرفوني، الملفوظية، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، ط1، 1998.

34- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الطليعة للنشر، اللاذقية، سورية، ط1، 2007.

35- فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، تر: محمد مشبال و عبد الواحد التهامي العلمي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2013.

د/ المجلات و الدوريات

36- مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت.

37- مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الانسانية، مج19، ع2، يونيو 2011.

ز/ المعاجم

38- ابن منظور، جمال الدين الأنصاري، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير
و آخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط.